

اسرار القرآن

الجزء الخامس

الامام ابي العزائم

تفسير اسرار القرآن الجزء الخامس

قوله تعالى : [وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] (24).

الحصن فى هذه الآية هى المرأة التى لها زوج فى الإسلام ، والمحصنات معطوف على من حرم الله علينا نكاحهن ، والتحريم لا يتعلق بالأعيان فليست المحصنة محرم على الإنسان من حيث نجاستها ، ولكن المحرم فيها تزوجها ، فالتحريم والتحليل معلقان بالأفعال والصفات لا بالذوات ، إذن فالمعنى وحرم عليكم زواج المحصنات. فالمحرم هنا الزواج لا المحصنة من حيث هى ، وقد ترد المحصنة للمرأة العفيفة الشريفة ، وقد تعلق بها أحكام فى القرآن فى غير هذه الآية ولكنها هى المرأة المتزوجة كما بينت لك.

وقوله تعالى : [مِنَ النِّسَاءِ] للبيان ، واستثنى الله من حكم تحريم النساء المحصنات ، و أثبت الحل للاستثناء لما ملكت يميننا وهن أسيرات الجهاد ، لا فرق بين أن تكون محصنة لغة أو شرعا ، بمعنى متزوجة ، ولكن على المالك أن يستبرئها حتى يعلم طهارة رحمها من حمل ، خشية أن ينسب إليه ولد غيره من أهل الكفر بالله تعالى ، وهذا الحكم بينته السنة ، وقد قرر المالكية أنه لو خرج فئة من المسلمين على قوم من أهل الكفر بالله فنالوا منهم غنيمة يكون ما أخذوه من النساء والرجال رقيقا ، ويسرى عليهم هذا الحكم كما يفعل فى بلاد السودان ، ويحل نكاح النساء منهن بملك اليمين بعد إستبراء أرحامهن ويسرى عليهن حكم التحرير بالقرابة ، فلو أن مسلما أسر أخته من الرضاعة ، أو بنت أخيه ، أو بنت أخته وكن مشركات فأنهن يكن حراما عليه ، وكذلك نساء أهل الكتاب أن كن أسيرات متزوجات بأزواج من دينهن ، ولم يكن أهل الكتاب حربيين فأن الحربى الذى غنمه المسلمون يكون كالمشرك بالله تعالى فيعطى حكمه ، وكذلك المشركين بالله.

وقوله تعالى : [كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ] المعنى كتاب من الله عليكم أى كتاب أوجبه الله عليكم ، وهذا الكتاب تحريم ما حرمه سبحانه فى هذه الآية وتعدد الزوجات فى آيات أخرى ، فإن الله أحل للمسلم أربعة من المحصنات وحرم عليه غيرهن ، وأحل له سبحانه ما ملكت يمينه ما لم تكن المحلولة متزوجة بإذن ما لكها ، أو إذن من باعها له ، فإنها تحرم عليه حتى يطلقها زوجها ، وكذلك فإن البيع والعنق لا يوجبان طلاق المبيعة والمعتوقة من زوجها ، فهى حرام على من اشتراها ، وحرام عليها أن تتزوج بعد عتقها إلا إذا طلقت . كما ورد أن رسول الله خير بريرة أمة أم المؤمنين عائشة عليها السم بعد عتقها أن تقيم مع زوجها أو تطلب منه طلاقا.

وقوله تعالى : [وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ] بين الله لنا ما حرمه علينا من النساء ، وقد بينت حكمة تحريم ما حرمه سبحانه منهن ، وفى هذه الآية بين لنا ما أحله سبحانه وتعالى بقوله : [وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ] والمعنى أن الله يقول قد أحللت لكم نكاح غير ما ذكرته لكم ، بعد رعاية ما عينت لكم من العدد المباح ، وهو أربعة من النساء فحسب.

[أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ] – وهى مهور النساء – [مُحْصِنِينَ] مؤمنين أحرارا من أهل العفاف – [غَيْرَ مُسَافِحِينَ] غير زناة [فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ] بعد أن بين الله لنا أحكام المواريث ، وما يجب أن يعامل به اليتامى ، ثم بين لنا ما يحرم علينا من النساء وما يحل لنا ، بين

لنا سبحانه ما يجب علينا عمله في من تحل لنا من النساء ، فقال فما استمتعتم ، والاستمتاع هنا الوطء ، ومعنى الآية بحسب ما عليه أكثر العلماء أن الخلوة لا توجب الصداق كله ، ولا تتحقق إلا بعد عقد النكاح ، ولكنها توجب نصف الصداق ، والوطء هو الذى يوجب كل الصداق ، وكان المعنى أن الرجل إذا عقد على امرأة خلا بها أو لم يخل ما لم ينكحها وطلقها فعليه نصف الصداق الذى عينه لها ، أو نصف صداق المثل أن لم يعين ، فإذا وطئها وجب عليه كل الصداق ، وما ورد من أن هذه الآية نزلت في المتعة بالنساء كما بينه ابن عباس وسعيد بن جبير ، وأنها لم تنسخ فهو مذهب ورأى خاص ، والذى عليه الإجماع أن رسول الله حرم المتعة بعد أن أباحها لضرورة قد يباح فيها للمسلم أكل لحم الميتة ، وقد رفعت الضرورة والحمد لله.

والذى أستحسنه بعد ما علمت ما ورد عن جلة الصحابة رضى الله عنهم، كعمر بن الخطاب وأمثاله أنها محرمة ، حتى قال عمر لو جاءني رجل مستمتع بالنساء لرجمته ، وعلى هذا التقرير فالآية محكمة ، وقد بينت لك المراد منها تفصيلا بعد الإطلاع على أقوال الأئمة رضى الله عنهم أجمعين.

"فَرِيضَةٌ" فرضها الله فريضة واجبة ، على من أفضى إلى زوجته وطلقها بعد أو مات عنها وهى فى عصمته ، ويكون الأمر للزوج فى حياته ولوليه بعد موته ، وعلى الزوجة بعد الجماع أن تعتد ولها النفقة فى حياة زوجها ، ولها الميراث أن مات بعد إفضائه إليها ولو مرة واحدة ، والضمير فى قوله "به" عائد إلى ما التى هى : كفاية عن النساء ، ولك فى "ما" أن تكون شرطية ويكون "فاتوهن" جوابها ، ولك أن تجعلها موصولة ويكون "فاتوهن" مشربا معنى : الجواب ، لأن الموصول فيه معنى الشرط ، وكذلك الضمير فى "هن" – عائد إلى "ما" أيضا فالضمير فى "به" عائد إلى "ما" بصفتها دالة على فرد فى "هن" بصفتها دالة على جمع.

[وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ] رفع الله تعالى الحرج على الزوج إذا رضيت زوجته أن تتنازل له عن شئ من الصداق ، فقال تعالى : [فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا]⁽¹⁾ ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن الزوج إذا فرض للمرأة فريضة ، وحصل له ضيق مالى أو عسر ف معيشته ، ورضيت منه بالقليل فإن الله رفع الجناح عنا فى مثل هذه المواضع ، قال سبحانه [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا]⁽²⁾ . وقال تعالى [وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ]⁽³⁾ أى من القليل الذى آتاه الله.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا] أكد الآية بأداة التوكيد ، بيانا للعقول إلى أهمية ما يذكر بعد وعليما أى محيطا علما بمصالح عباده ، فيأمرهم ويحكم عليهم بما به يفوزون بالحسنين [حَكِيمًا] لا يأمر خلقه إلا بما ينتج الخير العاجل والأجل لأن أمره ونهيه لحكمة عليه تقتضيها مصالح الخلق.

قوله تعالى : [وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ

(1) سورة النساء : 4.

(2) سورة البقرة : 286.

(3) سورة الطلاق : 7.

فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[25].

من هنا للشرط ، وهى كناية عن الرجال و "يستطع" أى يقتدر بيسار متوفر لديه أن يدفع أجور النساء الأحرار العفيفات المؤمنات ، وهو ثمن بضعهن والاستمتاع بهن ، فليتكح مما ملكت يمينه بشرط أن يكن مؤمنات ، وهذه الآية ظاهرها أن المراد مما ملكت أيماكم أى مما ملكه غيركم ، لأن ما لا طول له أى خير ، بمعنى طال طويلا ، فأن طويلا مصدر طال أى ارتفعت قامته ، ومن لا طول له كيف يكون له إماء يملكهن . ودليل ذلك أن الله تعالى يقول : [مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ] ما بها تعتبر زوجة يتزوجها بأذن ما لكها – وهنا سؤال – .

العباد كلهم عبيد الله تعالى ، فكيف بين الله أن الإماء أقل قدرا من الحرائر – والجواب أن الأمة إذا ولدت ولدا يكون لسيدها وهذا ذل ، بخلاف ما إذا تسراها سيدها فإن ولدها يكون حرا بعد أن يبيعهما لزوجها متى وجد طولاً – أما من حيث الإيمان فقد تكون الأمة أكمل من الحرة وأتقى منها ، ولكن وجهة الذل التى بينتها لك هى التى جعلتها أقل قيمة من الحرة.

وفى قوله : [مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ] لم يراع هذا القيد بعض العلماء ، ولكنه جعله من باب الأفضلية ، فإن كانت الأمة يهودية أو نصرانية جاز لسيدها أن ينكحها من شاء من المسلمين على هذا القول ، أما السيد فله أن ينكح المجوسية أو النصرانية أو اليهودية بملك اليمين ، والولد له دينا وتربية ، ولكن من تزوج الأمة وكان سيدها نصرانيا وكانت غير مسلمة فولده يرجع إلى سيدها ، وذلك مالا يرضاه لنفسه ، وبهذا صار نكاح الإماء أقل من نكاح الأحرار.

قوله تعالى : [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ][26].

الإرادة نوعان : إرادة مكونة وهو قدر الله الذى قدره بخصيص إرادة ما فى علم الله من إيجاد وإمداد ، ووجود وعدم وهداية وإضلال ، وإحياء وأمانة ، ووسعة وضيق ، ومرض وشفاء وغير ذلك مما قدره الله تعالى.

وإرادة محبوبة ، وتنحصر فى الأمر والنهى ، والإرادة فى هذه الآية هى ما يحبه الله تعالى ، فقد يكون وقد لا يكون.

أما الإرادة المكونة فأنها كائنة لا محالة – فقوله "يريد" هنا أى يحب الله ليبين لكم ما يحبه منكم لتسارعوا إلى القيام به بحسن توفيقه ، والهداية بيان مؤيد بتوفيق من الله وإقامة فيما يرضيه جل جلاله ، ولذلك فقد أمرنا الله أن نسأله فى كل يوم أربعاً وثلاثين مرة "أهدنا الصراط المستقيم".

وقوله : [سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ] أى طرق ومناهج الذين من قبلكم من الأنبياء والصديقين والأخيار والأبرار الذين آمنوا بالرسل السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

[وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ] أى يرجعكم إلى الحق متبعين أمره بقدر الاستطاعة مجتنبين نواهيه مطلقاً.

والله [عَلِيمٌ] بمصالحكم وبما فوزكم بالحسنين [حَكِيمٌ] فى أمره ونهيه وفيما قدره سبحانه.

قوله تعالى : [وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا

عَظِيمًا][27].

أى يحب أن يرجعكم إليه ، وأن يطهركم من الأرجاس والأنجاس بما بين لكم من تفصيل الأمر والنهى ، وبما تفضل به عليكم من الهداية وبما ترخص لكم مما به سعادتكم.

[وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ] وهم أهل الكفر بالله من اليهود والنصارى والمنافقين ممن يدعون الإسلام ، الذين يتبعون أهواءهم وحظوظهم وما كان عليه آبائهم من الضلال والكفر بالله ومعاصيه سبحانه.

[أَنْ تَمِيلُوا] أى تتحرفوا عن الحق [مَيْلًا عَظِيمًا] انحرافا عظيما يبتدىء بمعصية الله ورسوله وينتهى إلى الكفر بالله ، وهذا هو الميل العظيم.

قوله تعالى : [يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا] (28).

أى يحب الله التخفيف عنا بما بينه لنا من الرخص فى الأحكام تيسيرا لنا ، حيث أباح لمن لم يستطع زواج الأحرار أن يتزوج الإماء المؤمنات وأن كان الإيمان ليس شرطا لصحة زواجهن ، لأن نكاح المؤمنات أفضل من نكاح غيرهن من الكتابيات:

[وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا] معناها إذا لم تستطيعوا أن تتكحوا المحصنات ، ولم تستطيعوا أن تصبروا عن الجماع بجهاد أنفسكم لضعفكم ، فأنكحوا الإماء رخصة من الله تعالى وتيسيرا منه سبحانه لمن لم يستطع الصبر.

وفى قوله : [وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا] بيان لحكمة الرخصة : وضعف الإنسان ثابت عقلا ونقلا – أما نقلا فدليله هذه الآية ، وأما عقلا فإن الإنسان لا يقوى على القيام بكل ضرورياته وكمالياته إلا إذا ساعده مجتمع من الناس ، وكذلك لا يقوى على كبح جماع نفسه إلا إذا رخص الله له فى نكاح الإماء ، وبالفطر عند السفر والمرض ، وبالتيمم عند فقد الماء والمرض ، وبأكل الميتة عند الاضطرار ، ونحن نقبل رخص الله تعالى كما نقبل عزائمه.

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا] (29).

يعنى جل جلاله أنه يقول يا أيها الذين صدقوا الله سبحانه وتعالى ورسوله لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، أى لا تأخذوا أموال بعضكم بعضا فتجعلوها ضائعة ، كالتى يأكلها الإنسان من غير حق شرعى ولا عرفى يقتضى أن تأخذوها ، وخطاب الله للمؤمنين يجعل الأموال الإسلامية كلها كأنها أموال المؤمنين فيقول [لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ] بيانا لأن كل مؤمن عليه حق لأخيه ، وكان المال فى أيدي المؤمنين هو لجميعهم ، : لا يرضى مؤمن أن يرى أخاه جائعا أو عاريا وعنده ما يكفيه ، ثم استثنى الله تعالى من هذا الحكم كل أنواع التجارة.

فقوله : [إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً] استثناء غير متصل ، لكن أن كانت تجارة فلكم أن تأكلوا " عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ " وفى هذه الآية بيان لتحريم الربا ، والقمار والسرقه ، والطمع فى أموال الناس بالحيل والغش والمسروق ، بدليل قوله تعالى [بِالْبَاطِلِ] فإن ذلك وغيره مما يشبهه باطل – ولما كان المال الحلال له وجوه كثيرة ، بالصناعات والفنون والحرف ، والصدقات والهبات والمواريث ومهور النساء وأجور العمال – وأشهر تلك الوجوه هو التجارة –.

قال سبحانه [إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ] فيجوز لك أن تبيع ما هو بدرهم بمائة فهو حلال ، فإن الباطل هو أكل مال الناس بغير معاوضة ، وقد بين الله لنا أن التجارة تشترط فى البيع والشراء حصول التراضى بين المتبايعين ، وفصل ذلك رسول الله فى الحديث الصحيح "البيعان بالخيار ما لم يفترقا" وقد حرم الله تعالى أكل الأموال بالباطل ، وحرمت تلك الآية كل التصرفات فى المال ، فإن المال إنما يجمع فى الأصل للأكل ، فذكره الله هنا ليشمل جميع

التصرفات ، وكل التصرفات فى المال الباطل باطلة ، وفى قوله تعالى "بينكم" دليل على أن التراضى لابد أن يكون بين البائعين أو وكيلهما ، وتراضى غيرهما لا يوجب صحة البيع.

[وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ] بعد ما أوجب الصداق للنساء على الرجال بين وجوه تحصيل الأموال والمباح منها والحرام ، ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة تقتضى المعارضة والمفاوضة ، وقد تخرج عن مفاوضة إلى منازعة ، فقد تقتضى الخصومة التى ربما تؤدى إلى حصول مالا يرضاه الله تعالى . . .

قال سبحانه [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ] وهذه الآية تدل على قتل الإنسان نفسه أو قتل غيره ، فيقتل نفسه جهلا بوسعة الدين الإسلامى ، بمعنى أنه يشدد على نفسه فى الصيام والقيام فلا يقبل الرخص الشرعية ، فيغتسل للجنابة فى البرد القاتل ، ويصوم فى مرضه أو فى سفره ، أو يترك الطعام عند الضرورة للورع جهلا منه ، أو يترك العمل بالأسباب ويفر إلى الصحارى والواحات ليخلو عن الناس جهلا بوسعة الدين ، فيحصل له الضرر الفادح المؤدى إلى الموت، وهذا نهى الله عنه بقوله [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ].

وقد ورد أن رجلا من الصحابة كان فى سرية فأصابته جنابة ليلا ، فلما قام لصلاة الصبح استفتى : أمير السرية ، فأوجب عليه الغسل فاغتسل فمرض فمات ، فلما بلغ رسول الله غضب غضبا شديدا وقال كان يكفيه كف من التراب.

وكما ورد أن بعض الصحابة هم أن يقطع ذكره ، ويفقأ عينيه خوفا من الوقوع فى المعصية ، فبلغ ذلك رسول الله فغضب جدا وبين لهم أنه يأكل ويشرب وينكح النساء ويمزح وينام ومن خالف سنته فليس منه.

وكما ورد أن بعض الصحابة تعاهدوا أن لا يتكلموا مع أحد ، فمر بهم رسول الله فألقى عليهم السلام فلم يردوا عليه ، فغضب وقال عليه الصلاة والسلام "هلك المتنطعون" كل تلك الأحداث وما شابهها مخالف للسنة ، ومعنى هذه الآية يقول سبحانه [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ] أى أنكم أيها المؤمنون أهل دين واحد وأنكم أبناء رجل واحد هو محمد قال تعالى [النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ] ومن كحان أولى بك من نفسك فهو والد حقا ، لأن الأب الجسماني ليس أولى بك من نفسك ، بل هو أولى بك من غيرك ، وكيف لا وهو لا يشعر بما يلزم بولده من ألم أو مرض أو فقر كما يشعر الولد بنفسه ، ورسول الله أولى بنا من أنفسنا ، فهو أبونا حقا ونحن أبناؤه صدقا ، ومن كانوا أهل دين واحد وأبناء رجل واحد ، متحققين بهذا النسب الروحاني العالي يستحيل على الواحد منهم أن يقتل نفسه أو يقتل أخاه ، لأنه إذا قتل أخاه فقد قتل نفسه لمعنيين.

المعنى الأول : أنه أذل نفسه بقتل أخيه . والمعنى الثاني : أنه أهلك نفسه بقتله ، حيث يستوجب الخلود فى النار كما يستوجبها إذا قتل نفسه ، ومعلوم أن أسباب القتل لا تخفى على أحد ، وشرها ما كان فى حظ أو شهوة أو طمع لنفسه ، إلا أن يكون القتل لخطأ وهو شر أيضا ، لأن الإنسان لا يجرو على القتل إلا إذا تحقق ممن يقتله أنه عدو محارب أمره الله أن يقتله ، فإذا لم يحتط فى مثل هذه الأحداث الهائلة كان مدانا فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ] ⁽¹⁾ . وهذا الجزء المسلم الذى لا يجتهد قبل القتل حتى يقتل معتقدا ، فإذا كان القتل خطأ يبلغ من الله ورسوله

(1) سورة النساء : 92.

هذا المبلغ ، فكيف بمن يقتل المؤمن متعمدا - قال تعالى [وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا]⁽¹⁾.

وفى قوله [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ] بيان لأهل الإيمان الذين باشر الإيمان سويداء قلوبهم ، أن قتل المؤمن شر الشرور ، ينزل من الله تعالى منزلة قتل المؤمن لنفسه يأسا أو قنوطا ، قال تعالى : [وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ]⁽²⁾ فعطف القل على الشرك ، والحقيقة أن رجلا يدعي الإيمان يقتل مسلما يقيم الحجة على نفسه أنه شر من الكفار ، وأنه لم يذق حلاوة الإيمان ولا لذة التقوى ، وكم من كافر مشرك فى صورة مسلم عند الناس ، وهو عند الله شر من الكافر أعاذني الله وإخواني المؤمنين من الوقوع فيما يغضب الله وبسخطه.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا] وهذه الآية الشريفة حجة على سعة رحمة الله بنا ، حيث نهانا أن نأكل أموال غيرنا بالباطل أو بالوسائل التى حرمها سبحانه ، أو أن نقتل أنفسنا رحمة بنا من أن نقع فيما يوجب خلودنا فى نار جهنم بل وعاجل نقمة الله فى الدنيا ، ونحن فى تلك الدار الدنيا لا نقوى على أن نمس ناراً هى بالنسبة لنار جهنم كنار أطفئت فى الماء سبعين مرة ، فكيف يقوى الإنسان على أن يسحب على وجهه فى النار مخلدا فيها ، لو تذكر الإنسان عواقب عمله لتمنى أن يكون ترابا ولم يقع فيما يغضب الله تعالى.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا]⁽³⁰⁾.

بعد أن بين الله لنا ما حرمه علينا من النساء ومن الأموال ومن القتل وبين لنا ما أحله : وقد بينت لنا السنة ما أحله الله لنا من القتل وأمرنا أن نقتل المرتد عن الإسلام والقاتل الذى قتل غيره والزاني المحصن بالرجم وقتل من يحارب الله ورسوله ويسعى فى الأرض فسادا وحرم سبحانه علينا ما عدا ذلك منهم وتوعد ربنا جل جلاله فى هذه الآية القاتل بقوله [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ] الإشارة عائدة إلى القتل لقربه أو لما تقدم مما صرح لنا بحرمة ، أى ومن يقتل مسلما أو ينكح امرأة حرمها الله عليه أو يأكل مال أخوته المؤمنين بالباطل ويفعل ذلك [عُدْوَانًا وَظُلْمًا] تعديا وظلما من غير وجه حق [فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا] الفاء رابطة لجواب الشرط ونصليه ناراً أى ندخله ناراً تشويه شياً وكلما نضج جلده بدلناه جلدا غيره أبد الأبدى [وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا] اسم الإشارة هنا عائداً إلى اصلاء النار واصلاء النار هذا يسير على الله تعالى [إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] لأن المؤمن إذا قتل نفسه أو قتل أخاه أغضب الله تعالى غضبا يجعل الجسد مستحقا لعذاب الأليم فى نار جهنم وذلك بحسب نية السوءى.

قوله تعالى : [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا]⁽³¹⁾.

اجتناب الشيء تركه وعدم الوقوع فيه ، والكبائر هى كل عمل توعد عليه القرآن فاعله بالعقوبة فى النار . وأحدها كبيرة والمعنى : أن تتركوا وتتباعدوا عن الكبائر التى نهاكم الله عنها بجهد أنفسكم مع وجود المقتضى [نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] أى نسترها عنكم وعن الملائكة أيضا وعن معلمكم من الأرض حتى تأتوا يوم القيامة وليس عليكم شاهد بذنب . وليس التكفير محو الكبائر من

(1) سورة النساء : 93.

(2) سورة الفرقان : 68.

الصحيحة ، فالكبائر لا ينساها ربنا ولكنه يستتره جل جلاله برحمته ومغفرته – قال ابن عباس – لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ، والفرق بين الكبيرة والسيئة أن الكبيرة كما عرفت هـى كل مخالفة للشريعة يحاسب الله عليها فاعلها الذى لم يتب بالدخول فى النار والسيئة ما لم يتوعد الله عليها فاعلها بعذاب النار فأن الله يقنا من الميل إلى ارتكاب المعاصي ، فلا عصمة لنا منها إلا بحفظ وهدايته لأن الطبع الخبيث والنفس الأمارة بالسوء تدفعا إلى الوقوع فى معاصي الله ، فلا يمنعا عنها إلا سلطان الشريعة والخوف من إقامة الحدود .

أو تفضل الله علينا بالنور الذى يحبب الإيمان إلينا ويزينه فى قلوبنا فكتب فى قلوبنا الإيمان وأيدنا بروح منه ولولا فضل الله تعالى علينا بتلك الزيادة التى منحنا إياها لما فاز واحد منا برضوان الله تعالى فهو الذى تفضل فهدى ووفق وجذبنا إليه سبحانه فله الحمد وله الشكر نسأله جل جلاله أن يعصمنا من الناس وأن يحفظنا من الطبع الخبيث ومن النفس الأمارة بالسوء ومن الحظ والهوى ومعلوم أن الكبائر والسيئات والطاعات كلها متوقفة على النية والقصد – قال ع "إنما الأعمال بالنيات وإنما كل أمرئ ما نوى" فكل عمل وقع من الإنسان سهوا أو من غير قصد ولا نية فهو عفوا وما وقع بنية وقصد فهو الطاعة المقبولة أو السيئة التى يؤاخذ الله بها . أو الكبيرة التى يعذب الله عليها : - وهنا أبين لك الكبائر وأن حصرها بعض العلماء فى سبع كبائر وقد بلغها ابن عباس رضى الله عنهما إلى سبعمائة كبيرة ولكنى أحصرها حصرا يظهر لك أنواعها مفصلة – الكبائر هـى سبع عشرة كبيرة ربع كبائر من أعمال القلوب وهى الشرك والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله وأمن جانب الله ، وأربع فى اللسان وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن البالغ ، واليمين الغموس والسحر وثلاثة فى البطن شرب الخمر وكل مسكر وأكل مال اليتيم ظلما وأكال الربا مع العلم ، واثنان فى الفرج ، الزنا وعمل قوم لوط ، واثنان فى اليدين القتل والسرقة وواحد فى الرجلين الفرار يوم الزحف بغير وجه شرعى ، وواحدة فى كل الجسم وهو عقوق الوالدين ، وكل كبيرة من هذه الكبائر جعل الله للتوبة منها حدا شرعيا يجب على كل من ارتكب كبيرة منها أن يتدارك نفسه قبل الفوات حتى يطمئن قلبه إلى النجاة يوم القيامة ، ومن أهمل التوبة أورد نفسه موارد العذاب الأليم يوم القيام .

قوله تعالى : [وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] (32) .

بين الله محابه ومراضية مبتدئا بما حرمه وأحلّه ، ثم بين لنا ما يتعلق بالأموال وبالأنفس وبالأخلاق ، وبعد ذلك نهانا جل جلاله عن الحسد الذى هو من الكبائر لتتجمل بالفضيلة التى هـى الرضا عن الله فى قدره .

فقال سبحانه : [وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ] والتمنى هو طلب المر المتعسر أو طلب ما لا يمكن أن يكون بحسب قدرة الإنسان وهو نوعان كبيرة وصغيرة – عند العارفين ، أما الكبيرة فهى تمنى زوال النعمة عن الغير .

وأما الثانية فهى خلاف الأولى حيث يتمنى أن يكون له كما لفلان من مال أو عقار أو زوجة أو غير ذلك ، وهذا جائز إلا عند أهل العلم بالله فإنهم يكرهونه ، لأنه يدل على عدم الرضا عن الله فى قدره ، والحسد باب الشر كله .

فإذا حسد الرجل الرجل لنعمة سعى لسلبها منه لنفسه ، أو أعان على سلبها بواسطة غيره ، والحسد مرض نفساني وهو مرض إبليس لعنه الله ، لأن أول حاسد هو إبليس بحسده لآدم عليه السلام.

وأصول أمراض النفوس ثلاثة – وهى الحسد لإبليس ، والطمع لآدم ، والحرص لقابيل ، فآدم طمع فى الخلود فى الجنة فأصابه ما أصابه ، وقابيل حرص على أن ينكح أخته التى كانت معه فى بطن واحدة فقتل أخاه.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينهانا أن نطلب ما فضل الله به بعضنا على بعض ، من علم أو مال أو جاه أو رئاسة أو ملك ، بمعنى أن يسلب منه أو يكون لنا مثل ماله ، وذلك لأن تمنى مثل هذا إنكار على قدر الله تعالى وحجة على هلع الرجل وجزعه وعجلته.

وقد ورد أن من أسباب نزول هذه الآية أن نساء تمنين أن يكون لهن مثل ما للرجال من الميراث والغنيمة والجهاد والإمامة والقضاء فنزلت هذه الآية.

وقد ورد بسند الإمام ابن جرير الطبرى أن أم مسلمة قالت يا رسول الله لا نعطي الميراث ولا نغزو فى سبيل الله فنزل الآية المذكورة ، وقالت النساء ليت لنا مثل ما للرجال فأنزل الله تعالى [لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ].

والمعنى – للرجال نصيب مما اكتسبوا فى الدنيا والآخرة من أعمال القلوب كعقودها ونواياها ، وأعمال الجوارح من عبادات ومعاملات حسنة وأخلاق جميلة وجهاد – وللنساء نصيب مما اكتسبن من حفظ فروجهن وغض أبصارهن ، وصبرهن على الحمل والوضع والرضاع ، وهنا علم الله المؤمنين والمؤمنات الأدب بالرضا عن الله وبعلو النفس عن الذل لغيره فبين لنا فضل عزة النفوس وترفعها عن الذل لغير الله ، وعن الحسد الذى يحق الحسنات محقا – فيقول سبحانه [وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ] أى أن الله ذو الفضل العظيم فاسألوه بقلوبكم معتقدين سرعة الإجابة ، ليتفضل سبحانه عليكم بما به الخير لكم فى الدنيا والآخرة ، وهذه إشارة إلى أن العبد لا يعلم وجوه الخير له فلا يقول : "أعطى أموالا ولا أولادا عافية ولا زوجة صالحة" فإنه لا يعلم أن كان ذلك خيرا أو شرا – ولكنه يقول رب أعطنى من فضلك ، فإنه أعلم بخير العبد فيعطيه جل جلاله ما به صلاح حاله فى الدنيا والآخرة ، ولكنه إذا سأل غير ذلك وأعطاه فربما يكون فتنة يقع به فى مساخط الله ومغضبة ، وهذا لا يمنع أن يسأل الإنسان ربه وفاة على الإيمان ، وتوفيرا لمحاببه ومراضية ، ودخول الجنة والحفظ والوقاية من الشر وما أشبه ذلك ، فإن هذا هو الخير فى الحقيقة ، والله أكرم وأعز وأعلى من أن يرفع العبد إليه يديه ويوجه إليه وجهه ويرده خائبا.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] يعنى أنه سبحانه محيط علما بما به صلاحكم فى دينكم وأبدانكم وأولادكم ودنياكم وأخرتكم فاسألوه من فضله – والمفعول الثانى لقوله واسألوه دل عليه "من فضله" ، وجائز أن تقدره . واسألوه نعمته من فضله أو عفوه ومغفرته – وغير ذلك – فقوله : "من فضله" دل على أن الأول بالمسلم أن يسأل الله من فضله من غير أن يعين نعمة مخصوصة ، لأنه لا يعلم هل نيله تلك النعمة يعينه على محاب الله ومراضية أم لا .

ولما كان الله عليما بكل شئ فالأولى أن نسلم له جل جلاله ونتأدب بما علمنا فى الدعاء وغيره.

قوله تعالى : [وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيٍّ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا] (33).

هذه الآية الشريفة نسخت ما كان عليه الجاهلية من التبني ومن المعاهدات التي كانوا يتعاهدونها بعضهم مع بعض ، من أن كل واحد ينوب عن الآخر في حياته ، وفي موته ، وفي حقه ، وفي سنه ، وفي غناه وفي فقرة حتى يكون وارثا ، فنسخ الله أو أبدىهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وأحكم سبحانه آياته :

قوله تعالى : [وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيً] يعنى لكل مال تركه الميت جعلنا موالى له يرثونه بحسب أنصبتهم وسهامهم التي فرضها القرآن ، وعلى تأويل لكل واحد أو لكل قوم ، أى ولكل إنسان طال عمره من الآخر جعلنا موالى لهم حق الولاية بعد موته ، بل وفي حياته يرثونه – وكان سائلا سأل الله تعالى بيان الورثة الذين يرثون ما تركه بدليل قوله : "مما ترك" أى من الذي تركه فأجاب سبحانه بقوله : [الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ] ويكون الوقف على [مِمَّا تَرَكَ] ، فنقول : [وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيً مِمَّا تَرَكَ] وعلى ذكر المضاف تكون لكل واحد أو قوم جعلنا موالى مما ترك.

وتبتدى الآية الثانية بقوله : [الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ] ، ويكون لفظ الوالدان والأقربون جوابا لسؤال مقدر ، وبهذا القول تلغى الإيمان والعهد التي كان يقسمها أو يعاهدها الميت أن يجعل غير أوليائه شركاء في الميراث ، والموالى جمع مولى ، والمولى هو الولى ، والولى هو الذى يتولى غيره كربنا جل جلاله لنا ، فهو ولينا يتولانا سبحانه ببره وإحسانه ، فهو الذى أوجدنا وأمدنا ، وكرسول الله فأنه أولى بنا من أنفسنا وهو مولانا وسيدنا.

ومولى بمعنى الخادم الذى يتولى ربه سبحانه بالعبادة والطاعة ويتولى والده . ومولى عتاقته بالخدمة والمساعدة ، فنحن موالى رسول الله ، نتولاه بالسمع والطاعة لأمره ونهييه وإحياء سنته.

وموالى هنا – جائز أن يكون بمعنى السعادة والرياسة – وأن يكون مولى بمعنى الاحتياج إليه فى النفع ودفع الضرورات ، ولما كان مولى لفظا مقولا على معانى كثيرة لا يتميز منها معنى دون معنى عينا الله بقوله الوالدان والأقربون ، فخص الميراث بالوالدين والأقربين بعد الوصية والدين ، وعين سبحانه لكل نصيبه فيما تقدم من الآيات.

[وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ] هذه الآية منسوخة بقوله : [وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ] ⁽¹⁾ ، ويقول : [إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا] ⁽²⁾ ومعناها قبل النسخ أن الناس فى الجاهلية كان يتعاهد الرجل منهم مع الآخر ، فيقول : دمي دمك ، وهدمى هدمك ، وترثني وأرثتك ، وتطلب وأطلب بك ، فنسخ الله ذلك فى سورة الأنفال بقوله : [وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ].

بعد أن قرر هذا العقد بهذه الآية فجعل لمن يطول عمره بعد ما عاقده السدس بصريح هذه الآية . ولما نسخها سبحانه جعل للرجل أن يوصى لمن عاقده بما شاء من ثلث الميراث ، له الخيار فى السدس أو الربع أو الثلث فحسب ، ففى هذه الآية أمرنا الله تعالى أن نؤتى من ثبت له العقد نصيبه من الميراث وهو السدس كنصيب الوالد من ولده الذى له ولد ، لقوله تعالى [فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا] تحذيرا من الله تعالى لأولياء الميت الذين يطمعون فى حق أهل العقود.

(1) سورة الأنفال : 75.

(2) سورة الأحزاب : 6.

قوله تعالى : [الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا] (34).

القوام مبالغة في القوامه ، يعنى أنهم لهم الهيمنة عليهن قايما بجميع شئونهن ، ولا يجوز للمرأة أن تتصرف في بيت الزوج ولا في أولادها منه ولا في نفسها إلا بأمر زوجها ، بما له عليها من القيام.

[بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ] فالرجل فضله الله بالإمامة العظمى ويكون خليفة الله في أرضه ، وبالأمانة الصغرى فيكون إماماً للمتقين ، وبالقضاء وبالجهد وبأنواع أخرى معلومة ، ثم بين الله تعالى وجه تفضله على المرأة بقوله تعالى :

[بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ] وهذا الأنفاق منه الصداق والنفقة عليها من لوازمها الضرورية الكمالية ، : ومنه وجوب تربية الأولاد.

[فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ] الصالحات مبتدأ وقاننات خبرة ، والمعنى فالصالحه منهن توصف بأنها قاننة أى خاشعة مطيعة للزوج ، والقنوت هو الخشوع والخشية والطاعة.

[حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ] خبر بعد خبر ، ومعنى حفظها للغيب أى أنها تحفظ غيبة زوجها حفظا يقتضي عفافها وحفظ ماله وولده ، وقد ورد في الحديث الشريف خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا غبت عنها حفظتك.

وعلى هذا فتكون المرأة الصالحة مطيعة لزوجها ، حافظة لغيبته أمانة ، والمرأة المخالفة التى تعصى زوجها إذا نظر إليها أحزنه وإذا غاب عنها خانت.

[بِمَا حَفِظَ اللَّهُ] أن أضفنا المصدر إلى فاعله تكون المعنى بحفظ الله وتوفيقه لهن لأن الإنسان إذا لم يتفضل الله تعالى عليه فيعصمه من الوقوع فيما يجانسه ويشاكله وتقتضيه الحقائق التى : كون منها ، يكون أشر من الشيطان وأضر من الوحوش الكاسرة ، فإذا تفضل الله عليه وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه ، وكتب فيه الإيمان وأيده بروح منه كان فوق الملائكة المقربين ، وبذلك فالنساء لا يكن حافظات قاننات إلا بهداية الله وتوفيقه وحفظه لهن بما يجعله من النور فى قلوبهن.

وأن أضفنا المصدر إلى مفعوله فالمعنى يحفظن أوامر الله تعالى ووصايا رسوله ، وعندى أن إضافة المصدر إلى فاعله أولى للتأويل بما فى هذا المعنى من مشاهد التوحيد العلية.

[وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ] النشوز هو الرفعة والعلو : ولما كان الرجال قوامين على النساء كان علو المرأة نشوزا ، وفى قوله تخافون نشوزهن أى تظهر علامات نشوزهن ، وذلك بأن يرى الرجل المرأة غيرت عوائدها معه بأن كانت تقوم له إذا قدم فتركت ، أو تسارع إلى حاجته فتساهلت ، وهى علامات النشوز الأولية وبتلك العلامات يحصل الخوف للرجل ، : والخوف من صفات القلوب ، وهنا يكون الخوف ظلما ، وأما النشوز فهو الوقوع فى المخالفة فعلا.

وسبب هذه الآية الشريفة أن الله تعالى بين لنا أن الرجال قوامون على النساء ، وبين سبب ذلك كما قدمت لك ، ثم ذكر سبحانه بالمدح والثناء صفات خير النساء ، والموعظة للناشز أن يذكرها بالواجب عليها لزوجها شرعا وما يصيبها إذا هى خالفت زوجها من العقوبة يوم القيامة ،

بل وفي الدنيا ، وتكون الموعظة بإخلاص لله تعالى لتتنوع أفكارها غير مبدى لها ما ينفرها ، بل بأسلوب الحكيم ، فإن المراد إصلاح حالها ، والزوج يعلم ما ينوع أفكار المرأة.

[وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ] الهجر في المضاجع هنا يحتمل معنيين ، أما ترك جماعها وهو القريب بالنسبة للمضاجع ، وأما ترك الكلام معها والنوم معها في فراش واحد ، وجائز أن ينام الرجل معها في فراش واحد ويلفت وجهه عنها لتحس بتغيير قلبه عليها ، فإن نجح في موعظته وهجره لها كان المطلوب ، وإن لم تتنوع أفكارها وخاف منها ظهور النشوز عنادا ، قام بضربها:

[وَأَضْرِبُوهُنَّ] واختلف العلماء في الأمر بضربهن ، فقال يتجنب الضرب على الوجه لأن فيه المحاسن ، ولا يضرب في مكان واحد ، بل يفرق الضرب على جميع الجسم فيحصل الألم ولا يحصل ضرر ككسر عظم أو تشويه جلد ، وقال بعضهم بلف منديلا فتضربها به ولا يضرب بعصا ولا بصوت ، وعندى أن النفوس تتفاوت وبحسب نفوسهم يكون الضرب.

[فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا] أى فإن أثرت الموعظة فالواجب أن لا يتعدها إلى الهجر ، وأن أثر الهجر فلا يتعدها إلى الضرب ، وأن أثر الضرب فلا يتعدها إلى غيره مما هو أنكى من الضرب ، كالطرد من المنزل أو كالطلاق وما أشبههما.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا] يأتى الله بذكر أسمه الأعظم ومعه بعض أسمائه الحسنى ليدل أهل المعرفة على حكمته ، ولما كانت تلك الآية هى للتأديب والعقوبة ذكر هنا الاسم العلى الكبير ليلزم الرجال الخشية من الله وحسن رعاية أحكامه جل جلاله ، فأن قوله تعالى "عليا كبيرا" توقف العبد عند حد العبودية ذلا للعلو وخشية من الكبير ، فيكون فى موعظته وفى هجره ، وضربه لامرأته قائما لله بتنفيذ أمره لا منتقما لنفسه ، فسبحان الحكيم العليم.

قوله تعالى : [وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا] (35).

يقول الله تعالى فى الآية السابقة [وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ] وقد أولت لك "تخافون" بمعنى تظنون وهنا يقول تعالى [وَإِنْ خِفْتُمْ] وتأويلها هنا – وأن علمتم لأنها تقتضى اليقين.

[شِقَاقٍ] مأخوذ من الأمر الشاق ، أى علمتم حصول أو وقوع أمر شاق بينهما ، وجائز أن يكون مأخوذ من الشقة وهى البعد فأن كان من المشقة فالمراد به الخصومة الحادة ، وأن كان من الشقة فالمراد به البعد.

ومعنى ذلك أن الله تعالى بين لنا وسائل الصلح والإصلاح بحكمة فى الآية السابقة ، وذلك بالموعظة والهجر والضرب ، فإذا امتنعت المرأة أو أمتنع الرجل عن وقوع الصلح والرضا فقد بين الله حكمه فى هذه الحالة فقال:

[فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا] والذى يبعث هنا من الحاكم أو كبير القوم – ولما كان للحاكم أن يرسل من يشاء ، فإن الصلح يكون أكمل إذا أرسل رجلا من أهل المرأة وآخر من أهل الرجل لأن كلا منها أعلم بعوائد قرابته ، وأقدر على رؤية عاقبة الصلح من عاقبة الصلح من عاقبة الخصومة ، وعلى الرسولين أن يخلو كل رجل منهما بقريبة ، فقريب المرأة يخلو بها وقريب الرجل يخلو به ويبين كل منهما لصاحبه الواجب عليه شرعا بالحجة المقبولة ، ويبشره بالخير الذى يناله بالصلح ، وينذره عاقبة الخلاف ، ولهما أن يحكما بالطلاق أو الوفاق ، ثم بين الله لنا سبحانه هو المقدر ، أنه بحسن النوايا وإخلاص القلوب يقدر الله بهما الصلح والإصلاح.

[إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا] أما للرسولين أو للزوجين أولهما معا ، أى فإن يريد كلاهما إصلاحا "يوفق الله بينهما" ولقريب الرجل أن يبين أن الله ما جعله قواما على المرأة وأمرها بطاعته إلا وقد وكلفه وأوجب عليه للمرأة حقوقا يجب عليه رعايتها وإلا كان مخالفا لربه سبحانه وتعالى ، فإن المرأة نعمة الله للرجل فيجب على الزوج أن يشكر الله عليها بالإحسان إليها ، أو يتحمل الشقاق منها ليمنحه الله أجر الصابرين ، فإن ما يسر الرجل من المرأة يسر المرأة من الرجل فيجب عليه أن يدخل عليها السرور ، وقد فسر بعض العلماء "آتتا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة" أى زوجة صالحة.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا] أى عليما بما تظهرون وما تخفون ، فيجازى المحسن بإحسانه ويجازى المسيء بما يستحقه "خبيرا" لا يخفى عليه شئ وهنا أفصل لك بعض ما أجملت . إذا كان غضب المرأة يعلم أحله الله للرجل ، كغضبها عليه لزواجه أو لوجود والديه وأخوته معه ، أو لوجود أولاد له من غيرها معه ، وجب على قريبها أن يكشفها بما أحله الله وما أوجبها على العبد وما قدره ، ويخوفها عاقبة غضبها ، وأن كان لعمل حرام يقع فيه زوجها كشرب الخمر والسرقة والقتل وغيرها ، وجب عليه أن ينصرها على الزوج وأن يجتهد أن يخلصها منه بتكليفه بالتوبة والرجوع إلى الله أو بطلاقها.

قوله تعالى : [وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا](36).

أمر الله تعالى أهل الإيمان به الذين سبقت لهم منه الحسنى ن أن يخصصوا الله تعالى بالعبادة دون غيره قياما بالشكر الواجب عليهم مبينا لهم حقيقتين عظيمتين.

الحقيقة الأولى : أنه سبحانه هو المنفرد بالألوهية دون غيره ، فله العظمة والكبرياء والكمال والجلال والجمال والبهاء والنور ، وهو جل جلاله المعبود بحق لذاته.

الحقيقة الثانية : أنه سبحانه هو المنعم بجلائل النعم كبيرها وصغيرها ، من الإيجاد والإمداد وما يلزم ذلك من وجود ما به حفظ إيجادنا مما تراه جوارحنا ، وما غاب عنها من الآلاء التى بها تحصيل معرفته والمسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر ، والقيام بما يحبه جل جلاله ، لأنه سبحانه هو الموفق والهادى والفتاح والعليم والحكيم والمعطى والوهاب ، ونخصه بالعبادة أيضا دون غيره ابتغاء وجهه الكريم والحفظ من شرور الدنيا والآخرة ، وهو المعبود لذاته من أفراد أحبائه وخاصة أوليائه المعبود شكرا على جلائل النعم ، والمعبود للوقاية من العقوبة والانتقام.

والعبادة أعظم نعمة ينعم بها على من اجتباها ، فإن العبادة ما يحبه الله من العبد ، ولا يوفق جل جلاله لما يحبه إلا من يحبه ، وهى اعتقاد عند أهل التسليم ، وشهود عند أهل الكشف ، لن المعبود سبحانه قوة غيبية فوق الأسباب يقدر بها على النفع والضرر فنعبده مع غاية الحب ونهاية الذل والخضوع ، ففى اللغة التعبد هو الخضوع والتذلل ، فمن أحببته ولم تكن ذليلا خاضعا له لم تكن عابدا له . ومن خضعت له ولم تكن عابدا له ، لا تكون محبا ولا ذليلا ولا خاضعا ، والمنكرون محبة العباد لربهم منكرون حقيقة العبادة – فإن العابد فى نهاية الحب وغاية الذل والخضوع لمن يعبد ، وفى كمال الاعتقاد أن له قوة غيبية فوق الأسباب الظاهرة يقدر بها على النفع والضرر – ومن أنكر أن الله محبوب للعباد بل أنه غاية بغيتهم ، ووجهه العلى نهاية مقصدهم ، فقد أنكر أنه إله يعبد إذ العبادة كما قررنا نهاية الحب وغاية الذل ، ومن لا حب له لا عبادة له ،

والخاضع الذليل بلا حب ليس بعباد ، والعاشق بلا خضوع ولا اعتقاد ليس بعباد ، إذن فالعابد بلغ نهاية المحبة لله وغاية الخضوع والذلة لجناحه ، وأعتقد بقوته الغيبية وسلطته القهرمانية التي هي فوق الأسباب ، فيكون بتلك المعانى كلها عبد ، ومن يترك معنى منها ليس بعباد ، ولذلك فإنه سبحانه وتعالى قدم قوله "إياك نعبد" على قوله "وإياك نستعين" لأن العبادة غاية القصد ، والاستعانة وسائل لها ، والمقاصد تقدم على الوسائل للتعظيم ، وأن كانت الوسائل مقدمة عليها بحسب العمل ، والمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظم ، والمتساهل فيها متساهل بالحكمة التي لا جلها خلق ، وكل عابد لله متحقق بمعونة الله وليس كل مستعين بالله متحققا بعبادة الله ، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس عبادة إذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخيرات كلها.

هذا لأن العابد محب لله خاضع له عامل بأحكامه ، محافظ على سنة رسول الله ﷺ ، قائم بتأدية جميع شعب الإيمان من بر وصلة وعفو وإحسان وإكرام وتواضع وتوبة وإنابة ويقين وتوكل وتفويض وغير ذلك من المعانى التي يحبها الله تعالى ، والعبادة هي أكمل أعمال القلوب والجوارح معا ، لأن المحبة والذل والاعتقاد والمشاهدة فيها من أعمال القلوب ، والحركات البدنية من صلاة وزكاة وصيام وحج ونطق بالتوحيد ومسارعة إلى الخير من أعمال الجوارح ، فالعبادة مع كونها المقصد الأعلى في الحقيقة ونفس الأمر هي حقيقة الشكر على سوابغ نعماء الله تعالى وعميم آلائه ، قال تعالى [اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ]⁽¹⁾ فجعل سبحانه الشكر عملا وجعل الشاكرين قليلين ، فالعابدون على التحقيق قليلون لأنهم خيرة الشاكرين ، وقد بينت هذا الموضوع مفصلا في كتابنا "الفرقة الناجية" فراجعه أن شئت المزيد والله الموفق.

[وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا] – لما أن أورد الله النهى عن الشرك بعد الأمر بالعبادة ، دل على أن المراد من الشرك هنا هو الشوب الذي يكون في القلوب عند العبادة الذي يسميه أهل العلم بالله الشرك الخفي ، لأن قوله تعالى "اعبدوا الله" لا يقابله جعل ند لله أو اتخاذ وثن أو شريك لله ، لأن ذلك لا يتناسب مع قوله "اعبدوا الله" لأن الذين يخاطبهم الله بهذا الخطاب لا بد أن يكونوا بلغوا من الإيمان مبلغ اليقين ، ولم يبق إلا نظرهم إلى الأسباب قائمة فاعلة بعد اليقين الحق بألوهية الله وربوبيته ، فالشرك في هذا المقام هو الغفلة عند نظر الأسباب ، غفلة تغفل القلب عن مشاهدة الغيب فيسهو أو يغفل ، وسمى الله تعالى ذلك شركا ، لأن العبد في هذا المقام يعمل ببدنه ما أوجبه الشريعة عليه من حركة اللسان ، وحركات الجوارح في الصلاة ، ومن بذل المال ، وحركة الجوارح في الحج ، ومن ترك الأكل والشرب والجماع في الصيام من غير أن يكون للقلب علم ، وذلك العمل هو الخشوع والخوف والرغبة والرغبة وإخلاصه لله ابتغاء رضوانه.

أما الشرك في غير هذا المقام فهو جعل الأنداد والأصنام والكواكب وسائل لتقريبهم إلى الله زلفى ، أو شركاء لله كما قال تعالى مخبرا عن المشركين [مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى]⁽²⁾ . وكما أخبر سبحانه [أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا]⁽³⁾ . وهذا هو الشرك الظاهر الذي وقع فيه أهل الكفر بالله تعالى.

ومن عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم من أسرار القرآن وأشهده الله أنواره.

(1) سور سبأ : 13.

(2) سورة الزمر : 3.

(3) سورة ص : 5.

وسياق الآية بين والدلالة على هذا – قوله : [وَأَعْبُدُوا اللَّهَ] أى اخشعوا واخضعوا ذلاً لله ومسارة إلى القيام بتأدية ما أمر به والانتهاه عما نهى عنه.

[وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا] أى لا تمزجوا الإخلاص بشوب الآمال أو بالنظر إلى الأسباب قائمة فاعلة فتكون عبادتكم غير مقبولة عند الله ، فإنه سبحانه قال "إلا لله الدين الخالص" وهو الغنى عن أعمالنا ، ويحب من عبده ما كان خالصاً لوجهه شكراً له على سوابغ نعماءه ، فإنه جل جلاله يعطى نعم الكون للمخلص والمشارك ، ويحب من عبيده أن يشكروه جل جلاله بما فرضه عليهم وبسنة رسوله ﷺ ، فإن كفروا بنعمته لا يسلبها منهم لأنه معط وهاب ، ولكنه يسلبهم مزيد الإيمان من حيث لا يشعرون بشدة العقوبة ، فإذا جاء يوم القيامة حاسبهم على ما أنعم به عليهم وطالبهم بشكره ولات حين مناص.

[وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا] الوالدان تغليب الرجل على المرأة – والمعنى وبالوالد والوالدة إحساناً – أى أحسنوا إحساناً ، وكان سياق العبارة يقتضي – وإلى الوالدين إحساناً – فأتى بالباء هنا إشارة إلى أنها هنا للملاصقة ، أى اجعلوا إحسانكم ملاصقة فى بالوالدين لا إليهم ، لأن الإحسان منكم إليهما هو لأنفسكم فى الدنيا والآخرة – أما فى الدنيا فإن بركم للوالدين وسعة فى الأرزاق منسأة فى الأعمار مبرة من الأولاد ، فإن الله يجعل لمن أحسن إلى والديه أولاداً من ظهره يحسنون إليه أكثر مما أحسن هو إليهما – قال سبحانه [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا] ⁽¹⁾ . وقد عرفنا الله كيف نحسن إلى والدينا بقوله : [وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا] ⁽²⁾ أى أطع والديك وأن كانا كافرين فى كل ما كلفاك به إلا إذا جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

[وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ] وذلك بحكمة تجعلهما راضيين عنك . وإليك مثلاً – أتى أبو هريرة رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله – "أن أمى أدتني فيك فادع لها – فقال ﷺ " اللهم أهد أم أبى هريرة" فأصرف أبو هريرة مسروراً بدعوة رسول الله ﷺ ، حتى جاء على باب داره فسمع خشخشة الماء داخل الدار فهم بالدخول فقالت – مكانك أبا هريرة حتى أغتسل – ثم فتحت الباب وقالت – أمدد يدك أبا هريرة أنا أشهد أن لا آله إلا الله وأن محمد رسول الله – قال فحصل لي من السرور بإسلامها ما لا يوصف ، أنظر بعين قلبك كيف يسمع أبو هريرة ذم رسول الله ﷺ من أمه ثم يسرع إلى رسول الله ﷺ فيسأله لها الدعاء ، بر والديك بقدر هذا وأحذر أن تتزوج امرأة تدخل على والديك أو أحدهما ما يكرهان ، وأعطهما حقوقهما التى أمرك الله بها فتكون باراً بوالديك مطيعاً لله تعالى.

وفى قوله : [إِحْسَانًا] إشارة إلى التغالى فى القيام لهما بما يحبان ، فإن القيام بالحق الواجب ليس إحساناً وإنما هو وفاء.

[وَبِذِي الْقُرْبَى] ، أى الذين لهم قرابة تدلى إلى والديك من عمك وأبنائك وخالك وأبنائك ، الأقرب إلى الحد لأعلى ، أى أحسن بذى القربى رعاية لوالديك وتقرباً إلى الله تعالى ، حتى يكون النفع بك شاملاً ، وبقدر نفع المؤمن لغيره بقدر ما يهبه الله من الخير فى الدنيا والآخرة.

(1) سورة الأنعام : 160.

(2) سورة لقمان : 15.

[وَالْيَتَامَى] اليتيم هو من مات والديه أو أحدهما ، فاليتيم الذى مات والده أوجب الله علينا الرحمة به والعناية بتربيته وإيثاره على الأولاد والأهل ويتأكد هذا الواجب على الأوصياء وذوى القرابة للأيتام وسن رسول الله لنا مسح رأس اليتيم وإدخال السرور عليه ، فإن مات أبوه فقط وبقيت أمه فهو اليتيم ، فإن اليتيم من البهائم ما ماتت أمه ، ومن الناس من مات أبوه ، ومن الواجب على الأوصياء رعايته وهو فحضانة أمه بالرحمة والرفق وحسن تربيته وحفظ أخلاقه وآدابه وماله أن كان له مال ، وأما من مات أمه فالحق يتعين على والده ، وهذا الحكم مراعى فيه الإحسان للجميع لأنه سبحانه يقول : [وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى].

[وَالْمَسَاكِينَ] المسكين هو من أسكنه الفقر إلى الأرض أو الفقر والكهولة أو الفقر والمرض ، والإحسان إليهم لا يخفى على ذى رحمة ففى حال الفقر والهرم ، رعايتهم فى ضرورياتهم وكمالياتهم قدر الاستطاعة ، وفى حال الفقر فى الصحة مساعدتهم لإقامتهم فى عمل يسد حاجاتهم.

[وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى] أى القريب مكانا أو نسبا بحسبه ، ولكل حق بحسبه ، فإن كان جارك القريب مكانا له قرابة النسب فله عليك حقان ، وأن كان قريبا مكانا لا نسبا فله عليك حق ، فإن حق الجار القريب المكان البعيد النسب حفظه فى عرضه وفى دينه وماله ومساعدته فى الشدة والرخاء ن فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه ، ويعوده إذا مرض ويشيعه إذا مات ، ويبدل ماله إذا افتقر ويواسى أولاده بعد موته ، والجار القريب المكان القريب النسب له حق ثان ، وهو تعهد أهله وداره أن غاب بدوام السؤال والرعاية ومساعدته بما يفضل لديه من أكل ومشرب وملبس حتى يجعل أولاده كأولاده ، ويجعله كولدته أن كان أصغر منه أو كوالده أن كان أكبر منه ، حتى يكون الجار القريب مكانا القريب نسبا كأنه معه فى داره ، وكأنه فرد من أفراد أسرته إذا غضب أرضاه ، وأن عتب اعتذر إليه ، وأن جفاه وصله وأن أساء إليه أحسن.

قوله تعالى : [وَالْجَارِ الْجُنُبِ] أى البعيد عنك ، وقد قدر أهل العلم أن الجار الجنب من بيتك إلى أربعين بيتا شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، وعندى أن كل مسلم جار جنب ولو كان بمياه الهند أو مياه مراكش ، لأن الإسلام وطن والمسلمون أسرة واحدة ، قال ع "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي" فبين الله تعالى لنا أن المسلم جار جنب ، ثم سن لنا رسول الله كل مسلم لكل ملم كالعضو فى الجسد ، وأن كل المسلمين لكل مسلم كالجسد للعضو وهم المسلمون حقا الذين وصفهم الله بقوله : [وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ] ⁽¹⁾ الآية .

والقرآن المجيد صراط الله المستقيم الذى من تجاوزه هلك ، وسنة رسول الله المقام الأكمل الذى من تجاوزها سقط فى النار قال تعالى : [حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ] فمن جاءه كلام رسول الله فقال أن وجدته فى القرآن أخذ به فقد هلك وأهلك غيره ، فإن رسول الله أوتى القرآن وأكثر من القرآن .

[وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ] المراد منه من كان معك فى بيت واحد ، أو فى تجارة أو زراعة ، أو حرفة أو صناعة ، أو بينك وبينه شركة فى عمل – هذا هو الصاحب بالجنب ، والإحسان إليه أن تراعى الله ورسوله فى معاملته غاب عنك أو حضر ، راقبك بشدة أو أهمل ، فإنك إنما تعمل ذلك لوجه الله تعالى ، ومتى تجمل المسلمون بهذا عاد لهم المجد وصاروا فوق سلفهم عند الله تعالى –

(1) سورة الفتح : 29.

قال: "أنتم في زمان لو تركتم عشر ما أمرتم به هلكتم وسيأتي على الناس زمان من عمل بعشر ما أمره نجا" فكيف بنا إخواني إذا نحن عملنا بكل ما أمرنا به في زمان لا ناصر للدين فيه ، والسلطة بيد أهل الكفر بالله ، فإذا نحن عملنا بكل ما أمرنا به كنا فوقهم جهادا لأنفسنا في عزيمة ومراقبة لربنا جل وعلا.

[وَابْنُ السَّبِيلِ] هو النائي عن أهله وبلده في طلب ما أحله الله من مال ليمون نفسه ومن تجب عليه نفقتهم ، أو تحصيل علم نافع أو لحج أو جهاد ، أو لنظر بعبرة في الآثار – هذا هو ابن السبيل ، والإحسان إليه واجب على كل من وجده في محلة ، والإحسان إلى مثل هذا إغاثة بالقوت والملبس والمأوى أن كان لازما له ، وبيان ما أبهم عليه مما يحتاج إليه وتزويده بالدعاء والنصيحة والموعظة الحسنة وإرشاده إلى من يعينه في كل بلد ممن يعرفه.

[وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ] مملوك اليمين تقررت حقيقته في كتب العلم ، وقد ورد في مذهب مالك أن المغلب ولو بغير إذن الإمام على قوم كفار من المجوس أو الصائبة ، والذين حكم القرآن عليهم بالكفر ، أو أمكنه أن يأسر منهم رجالا ونساء ليذهب بهم إلى بلاد الإسلام بإخلاص النية أنه يريد إسلامهم يكونون من ملك اليمين ، أما إذا عين الإمام جهاد قوم بجيش خاص وقهرهم فمن أسلم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى فهو ملك اليمين ، أو يدفع الجزية ، ويكونون أهل ذمة أن كانوا نصارى أو يهود ، ولا نقبل منهم الجزية أن كانوا مجوسا ، بل يكونون أرقاء ، والله تعالى يأمرنا بالإحسان إليهم بعد أن جعله ملك إيماننا ، فانظر إلى أحكامه تعالى . كيف أوجب الإحسان بمن أذلهم الكفر ليبيح لنا غيب أنه الخلاق المقدر ، بل هو الهادي المضل ، وأننا عبيده لا فرق بين المؤمن والكافر – قال تعالى : [إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا] ⁽¹⁾ أما أهل الخصوصية فهم أهل الإيمان الكامل الذين أمرهم الله وأدل لهم أهل الكفر ، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأمرهم أن يتجملوا بأخلاقه مع كل نوع من أنواع الناس ، فابتدأ بالوالدين فالأقربين فالإيتامى فالمساكين فالجار القريب قرب مكان أو نسب أو هما معا ، فالصاحب بالجنب فابن السبيل فما ملكت إيماننا ، وكل تلك الفضائل العلية هي من أخلاق الله تعالى ، فإنه أغدق نعمة الروح والجسم لمن سبت لهم منه الحسنى وأغدق نعمة الكون لمن أبعدهم عنه ، فليس الناس عنده سواء فيما يتعلق بالإحسان الإلهي روحا كما قال تعالى : "ليسوا سواء" وفيما عدا ذلك فهم سواء ، لأنه ضمن أرزاقهم وأعمارهم وخلق لهم أرضا يبسا ومعادن وحيوانات ونباتات وأفلاكا سيارات وثابتات وملائكة تتصرف فيما يعود عليهم بالنفع وشياطين تغريهم بمخالفة أمره فسبحان الرب العلى الكبير الذى حير الأرواح وأدهش العقول بغرائب قدرته وعجائب حكمته.

[إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا] هنا يجب العجب يثبت الله لنفسه أنه يحب وأنه لا يحب ، ومعلوم أن أهل العقل أثبتوا أن المحبة لا تكون إلا بالتجانس ، وقد يدعو إليها التضاد فترى الفقير يحب الغنى والجاهل يحب العالم ، والضعيف يحب القوى ، وقد يدعو إليها التجانس فى الفضائل ، فترى العاقل يحب الأديب ، والحكيم والكريم لما فيهم من الصفات التى يحبها أهل العقول ، والله تنزه عن أن يكون له مجانس أو مشاكل من خلقه ، فما هى محبة الله للعبد وما هى عدم محبته ومن هو العبد ، أليس هو الذى كان لا شئ فخلقه وأبدعه ، ولكنى أبين لك هنا أن منكري محبة الله للعبد وعدم محبته يجهلون الحقائق ، وقد حكموا بالشهود على الغائب ، وهذا حكم باطل ، وإنما يحكم بالشهود على الغائب فيما تجانس ، فيحكم على عمرو بما حكم به على زيد

(1) سورة مريم : 93.

للتجانس فبينهما إنسانية متشابهة ، ولكن هل نحكم على الله بما نحكم به على خلقه تنزه سبحانه ، والحقيقة أن محبة الله ليست كمحبة الخلق بعضهم لبعض ، فإن محبة الخلق لها أسباب داعية ومقتضيات لازمة ، كمحبة الرجل لزوجته ، ومحبة الرجل لولده ، ومحبته لقرابة أمه وأبيه ، أو محبة المحتاج لمن يعطيه ، والله تنزه وتعالى عن كل ذلك ، وأنا لنعلم كلنا أن الله تعالى يحب ذاته وأسماءه وصفاته حبا حقيقيا لا يتصوره ملك مقرب ولا نبي مرسل ، لأن الله يحيط علما بذاته ويحيط علما بما عليه تلك الذات من الكمالات ، فهو يحب ذاته وأسماءه وصفاته حبا يليق بقدرة جل جلاله ، ولما كانت صفاته العلية محبوبة له فكل مؤمن جملة الله بمعاني صفاته أحب معاني صفاته في هذا المؤمن ، فكان حبه لمعاني صفاته فيه حبا لذاته ، كما يحب الرجل الخزانة التي يضع فيها جواهره الثمينة ويحافظ عليها ، وكل عبد لم يجمله الله بمعاني صفاته بل ابتلاء بأضداد تلك المعاني فكان هلوها بخيلا شحيحا ظالما فاجرا فاسقا نائيا بجانبه عن الله ، كان ذلك بغيض الله ومقته ، فلا يحبه سبحانه ، أذن فالله يحب ويبغض ، وليس حبه وبغضه لتأثر ، لأن من يبغضه لم يؤذيه تنزه وتعالى ، أو سلب حقا من حقوقه ، أو منعه ما هو في حاجة إليه تنزه سبحانه كما يبغض بعضا بعضا ، ولا أن ما يحبه الله أعانه على نيل مقاصد أو دفع عنه عدوا أو يسر له مطلباً أو أطعمه وسقاه وكساه تنزه الله تعالى فكل ذلك مستحيل في جانبه فمن قال : الله يحب العبد فهو صادق ، ومن قال أنه يحبهم صدق لأنه رأى من وراء ستارة الكون آثار قدره.

[مَنْ كَانَ مُخْتَالًا] أى الذى يمشى متكبرا فخورا ظالما الخلق مؤذيا لجيرانه واهله ، عاقا لوالدي قاطعا لرحمة – تلك كلها صفات وخطايا من أبتلى بها يبغضه الله تعالى – إذن ظهر لك معنى محبة الله للعبد فى قوله : "يحبهم" ومعنى عدم محبته لهم حيث قال : [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا] أى متصفا بصفات إبليس والبهائم ، وقد جملة الله بالفضل الذى يدرك حقائق الكون ويقتبس منم ورائهما أنوار القدرة والحكمة ، ثم يهو إلى حضيض الأسفين وسافل الارذلين ، جملنا الله بما يحب حتى نكون ممن أحب وأشهدنا جماله العلى حتى نحبه بتوفيقه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما لثمان آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت وهى.

[يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ] [وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ] [يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ] [إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا] [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] [وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا] [مَا يَفْعَلِ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ].

قوله تعالى : [الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا] (37).

بعد أن أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين وإلى الأنواع الأخرى التى ذكرها الله تعالى بعدهما ، أخذ تبارك وتعالى يحكم أحكامه على من لم يحسنوا بهم ولا بغيرهم فقال جل جلاله "الَّذِينَ يَبْخُلُونَ" والبخل ترك القيام بالواجب وشرعا هو عدم الإحسان حرصا على جمع الأموال ، والذين هنا أما أن تكون بدلا من أسم كان فتكون مرفوعة أو صفة لمن فتكون منصوبة ، أو أنها جواب لسؤال مقدر تقديره من هو المختال الفخور ، فبى الله لنا صفات المختال الفخور بقوله : "الَّذِينَ يَبْخُلُونَ" الآية فإذا بلغ البخل بالعبد مبلغه النهائي أحبه فدعا الناس إلى البخل مثله.

"وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ" ويأليتهم بخلوا ولم يتجاوزوا تلك الخصلة الذميمة إلى ما هو شر منها ، وهو أمر الناس بالبخل فإن كان البخل لغلبة طبعه الخبيث وإتباع نفسه الأمارة بالسوء ، كان

من الكبائر ، وأن كان إنكارا لأمر الله كان من النفاق لأنه شك في وعد الله تعالى ، والبخل هو الذي يعق والديه ويقطع رحمه بمنع برهما وصلة رحمه بالمال ، والشحيح هو الذي لا ينفق من المال على نفسه وأهله وأولاده شحا بالمال عليهم ، وفي الأثر – أن الله يدخل الرجل الفاجر الجريئة الجنة بالسقاء ، ويدخل الرجل العابد النار بالبخل ، وصفة البخل صفة خبيثة تدل على عدم الثقة بالله والتوكل عليه ، قال تعالى مخبرا عن أعدائه "لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا"⁽¹⁾ وهي صفة اليهود ومشركي العرب . "وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ" . بين لك أن الفضل المنسوب إلى الله تعالى هو إحسان الله إلى عبده بالعلم به سبحانه وبأيامه وبأحكامه ، والفضل المنسوب إلى الرب جل جلاله هو تفضله على العبد بكثرة الأموال والأولاد والعافية ونفوذ الكلمة قال تعالى مخبرا عن سليمان "هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ"⁽²⁾ وجائز أن تكون الواو هنا للزم ويكون "ويكتمون" معطوفة على ويخلصون والموصوفون بالكتمان هم الموصوفون بالبخل ، ويكون البخل هو كتمان ما بينه الله في كتابه من بعثة محمد ، ويكون البخل هنا بخلا بالعلم والحقائق إنكارا لما بينه الله تعالى فكتبة ، ويكون الخبر في الآيتين عن اليهود .

وجائز أن يكون معنى هذه الآية ويكتمون أى يخفون ما آتاهم الله من فضله من بيان مقام حبيبه محمد وأنه خاتم الرسل ، وأن موسى وعيسى عليهما السلام تمنيا أن يكونا من أمته ، ولكن حرص اليهود على السيادة والعلو في الأرض بالباطل دعاهم إلى إخفاء آيات الله المنزلة في كتبه .

وقد بينت لك أن الإيتاء والإعطاء بمعنى واحد ، والفرق بينهما أن الإيتاء يكون عاما والإعطاء يكون خاصا ، وهاتان الآيتان وأن كانتا خاصتين باليهود إلا أنهما جريا من يتصف بتلك الصفات المذمومة من اليهود ومن غيرهم ، والذي آتاهم الله من فضله هو العلم والنور والهدى كما بينت لك .

"وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا" أى وأعدنا وهيانا للكافرين عذابا مذلا مخزيا مؤلما ، وهذه الآية تدل على أن البخل هو بخل بالعلم النافع وأن الكتمان هو كتمان له أيضا بدليل أن الله تعالى أعقب الآيتين بقوله : "وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا" هذا والبخل بالمال وبالمنفعة لضعف الثقة بالله والتوكل عليه يوقع في الشرك أعادنا الله تعالى منه .

قوله تعالى : "وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا"⁽³⁸⁾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى أهل الإيمان الذين ينفقون أموالهم إبتغاء مرضاة الله ، وبين أهل الكفر بالله يخلصون بالمال والعلم ، بين لنا أهل النفاق والذين حرموا الإخلاص لله فلا يعبدون ولا ينفقون إلا رياء الناس ، ولما كان هذا السر لا يعمل به إلا الله ، والراسخون في العلم بينه الله لعامة المؤمنين فقال سبحانه وتعالى "وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ" ولولا أن هذه الآية دالة على صفات قوم هم شر من اليهود في الكفر لقلت أن الواو للزم ، لأن تلك الصفات الذميمة كلها لواحد – قلت أنهم شر في الكفر من اليهود ، لأن اليهود يوحدون الله ، وإنما كان كفرهم لتكذيبهم رسول الله وإنكارهم ما آتاهم الله تعالى من فضله بيانا لمقامه ، ولكن الذين ينفقون أموالهم رياء الناس هم الذين آمنوا بالسنتهم وكفرت قلوبهم ، ولكنهم آمنوا باللسان تقاة من رسول الله ، وهم الحقيقة كفار

(1) سورة المنافقون : 7.

(2) سورة النمل : 40.

بالله ورسوله قال تعالى : **"إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ"** لأنهم أشد على أهل الإيمان من الكفار الظاهرين بالكفر ، فإن الإيمان لون واحد ، والكفر لون واحد ، والنفاق ألوان كثيرة ، والله تعالى بين لنا صفات المنافقين في أول السورة التي تذكر فيها البقرة والسورة التي تذكر فيها "براءة".

"يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ" أى يبذلونها ليرى الناس أنهم كرماء متصدقون . قال تعالى "يعلم السر وأخفى" وقال تعالى "لا يخفون علينا" و "يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور" الواو هنا للحال والجملة حالية ، وهى حال لازمة نفى الله عنهم الإيمان بالله وباليوم الآخر وأن عملوا أعمال أهل الأيمان ، لا فرق بين أن يكون ذلك العمل فى المال أو فى العبادة أو فى الأخلاق أو المعاملة، فإن كان قربة قامت بها الجوارح لم تصدر عن عقد القلب على توحيد الله والإيمان بحبيبه محمد ﷺ والتصديق بيوم القيامة كانت سببا فى غضب الله تعالى على العامل قال تعالى **"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ"** وقال سبحانه **"لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ"** والتقوى عمل قلبى وقال ع **"إنما الأعمال بالنيات"** وفى رواية **"إنما العمل بالنية"** بسند الإمام أبى حنيفة ويلزم من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، ويلزم من الكفر باليوم الآخر الكفر بالله وبرسوله ﷺ ، ومن آمن باليوم الآخر ونسيه كن كالكافر قال تعالى : **"الْيَوْمَ نُنَسِّأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"** وقال سبحانه **"بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ"** **"وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا"** أى أن من ذمهم الله تعالى بأوصاف ذكرها فى الآيات السابقة فالشيطان قرينه ، وعلى هذا فمن يكن الشيطان قرينه أو مقارنا له ملازما له لا يفارقه ساء حاله عند الله ورسوله وعند المؤمنين وماله أيضا ، فإن الشيطان مسلط على كل مسلم ولكنه لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون – أما الوسومة فلا ينفك يوسوس ويزين فمن عصمهم الله تعالى وكتب الإيمان فى قلوبهم وحبيه إليهم وزينة فى قلوبهم وأيدهم بروح منه ، لا يضرهم وسوسة الشيطان لهم ، وأما من وكلهم الله إلى أنفسهم ولم يمنحهم القابل الذى يقبلون به ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم يجعل لهم النور فى قلوبهم فأولئك أنصار الشيطان والشيطان ، وليهم وهم الذين سبقت لهم السوءى أعادنا الله بوجهه الكريم من سابقة السوءى وخاتمتها أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا"** (39).

ماذا اسم استفهام إنكاري ، و "ما" وحدها اسم استفهام ، و "ذا" اسم موصول ، وهذه الآية الشريفة دلت دلالة صريحة على أن كل إنسان يمكنه أن يكون مؤمنا بسهولة لدلائل الإيمان ، ولجلاء ظهورها خلافا لما يقوله المعتزلة والمتكلمون من أن المؤمن لا يكون مؤمنا إلا إذا فقه الأدلة العقلية وإلا فهو مقلد والمقلد عندهم كافر ، ولو كانوا كذلك لما قال الله تعالى **"وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"** كما يقول الإنسان للجالس على المائدة القادر على أن يأكل – ماذا عليك لو أكلت – والعاقل لا يقول للمريض العاجز عن حركة يده ماذا عليك لو خرجت مع الجيش تجاهد الكفار – أو يقول للمرأة – ماذا عليك أو تكوينين رجلا – ولو حصل مثل هذا من إنسان لحكم عليه بالجنون فكيف به وهو خبر عن الله تعالى ، وأن قال بعض من لا يعقل عن الله أن هذا حسن من الله قبيح من غيره لحكمنا عليه بالجهل بنفسه وبربه ، والحقيقة أن هذه الآية دلت على أن الإيمان سهل المأخذ ، وأن أقل نظرة فى الوجود تكفى الناظر أن يؤمن بالله وبرسوله ﷺ ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره – فأهل الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ولم يزاولوا الأدلة التى وضعها المتكلمون هم المؤمنون حقا ، وقد أثنى الله عليهم بقوله : **"الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ"**

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (1) ، وكفى بذلك مدحا من الله سبحانه لأهل الإيمان.

أما ما يقوله المتكلمون فهو العلم ، والعلم فوق الإيمان قال تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ" (2) فآخبرنا الله تعالى أن الله يفضل على أهل محبته بالإيمان ثم العلم ، فيكون الإيمان هو تصديق رسول الله ﷺ فيما جاءنا به من عند الله ، والعلم يكون بعد رياضة النفس وتركيتها وتلقيه من العلماء بالله ، ويكون العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم على جوهرها – ومن آتاه الله الإيمان والعلم خصه بالفضل . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وهذه الآية الشريفة حجة لنا على أن الإيمان هو التصديق والتسليم للصادق في خبره بعد أن تقوم الحجة بالمعجزة على صدقه "فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (3) والخلاف بيننا وبين المتكلمين لفظي فإنهم يتكلمون عن الإيمان الكامل الذى هو نتيجة اليقين الحق بعد علم اليقين وعينه ، ويحسن أن نتكلم عن الإيمان الذى به الفوز يوم القيامة بالنعيم المقيم فى الفردوس الأعلى.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى ينكر عليهم عدم قبولهم للإيمان بعد قيام الحجة ووضوح المحجة ، ويثبت سبحانه وتعالى أن الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ مما تهش له القلوب وتبش ، وكل إنسان لم يقبل الإيمان فحقيقته بهيم أو وحش أو شيطان ، وليس بإنسان – قال تعالى "أن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا" – الحقائق التى يجب أن ينعقد عليها القلب حتى يكون الإنسان بها مؤمنا بالإيمان بالله المقتضى الاعتراف بالله تعالى من أسماء وصفات وكتب وملائكته ورسول ، والتصديق بيوم القيامة بعد الموت ، ويوم القيامة ظرف للنعيم المقيم لمن سبقت لهم الحسنى ، وللحساب والعقوبة والعذاب الأليم لمن سبقت لهم السوءى ، والنفقة فى سبيل الله وهى البرهان على مسارعة المؤمن إلى محاب الله ومراضية جميعها ، لأن المنفق فى سبيل الله قام بعمل يتعسر على غير المؤمن بل وعلى أهل الإيمان الضعيف ، فمن أنفق فى سبيل الله قامت له الحجة بكمال الإيمان وبأنه فعل ما أمره الله به وترك ما نهاه عنه من بقية شعب الإيمان.

"مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ" . سبق لك البيان بأن الفضل والرزق المنسوبين إلى الله تعالى يراد بهما العلم بالله وجمال الأخلاق وكمال المعاملة والقيام لله بما يجب بإخلاص ، ويتصل بذلك النفقة من المال والجاه والعافية وغيرها من رزق الله تعالى.

"وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا" كان هنا تامة تثبت علم الله بما كان عليه الكفار الذين لم يقبلوا عن الله تعالى ما جاءهم به رسول الله ﷺ ، مع ما جملة الله به من جمال الأخلاق ، فضلا عن وضوح دلائل الإيمان – قال تعالى "وَأَنْكَرَ لَعَلَّيْهِ خَلْقَ عَظِيمٍ" وقال سبحانه "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ".

قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا" (40).

(1) سورة البقرة : 3 – 4 – 5 .

(2) سورة الروم : 56 .

(3) سورة النساء : 65 .

المتقال هو ما يوزن به ، وتكون المعنى أن الله لا يظلم وزن ذرة ، والذرة هي الجزء الصغير جدا من التراب لا يكاد يتجزأ بحسب النظر – وفي هذه الآية بيان بأن الله تعالى منزّه عن ظلم الخلق مطلقا – وليس في هذه الآية ما يشير إلى أن الله قادر على الظلم ولم يظلم فمدح نفسه بذلك تنزهه وتعالى – والتكلم في مثل هذه الحقائق من أن الله قادر على أن يظلم ومدح نفسه على عدم الظلم فتح لأبواب الفتن ، ونحن نسلم معانى الصفات كما وردت ، ويفهم من هذه الآية أن الله تعالى تنزه عن الظلم لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير وليس ثم ملك لغير الله تعالى.

"وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعَفْهَا" يعنى أن العبد إذا جاء يوم القيامة وله حسنات كثيرة ، فجاء من لهم حقوق عليه فأخذوا حسناته إلا حسنة واحدة ، فأن الله سبحانه يضاعفها إلى مائة ضعف وكثر ولا يسأل عما يفعل – هذا برهان على عظم فضل الله تعالى حتى يرفعه في أعلى مقامات الجنة جزاء منه سبحانه وفضلا عظيما منه لعبده.

"وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا" بعد أن بين الجزاء والمزيد من فضله لصاحب الحسنة الواحدة ذكر لنا ما فوق ذلك وهو الإحسان ، بدليل قوله "أجرا عظيما" فأن أجر الأجسام المتعلق بالنعيم الجسماني في الجنة لا يخبر الله تعالى عنه بأجر عظيم – والأجر العظيم هنا هو أجر الروح الذي تفوز به من مواجهاتها بالوجه العلى العظيم ، ومن الخطوة بجوار الأخيار على منابر النور قدام عرش الرحمن ، وبأنسها بسماع كلام الله تعالى يوم القيامة حيث الأنس على بساط القرب – وهذا هو الأجر العظيم.

ولدن هنا فوق عند ، فأن الرجل قد يقول عندي مال وهو منتشر في تجارته وليس معه في جيبه منه شيء ، ولكنه إذا قال لدى مال أو لدى مال يكون في جيبه أو في يده – فقوله تعالى "وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا" أى يؤتى أهل محبته من لدى ذاته العلية وأسمائه وصفاته خاصة من غير واسطة أجرا ، هو الإحسان إليه بشهود جماله العلى قدام عرشه جل جلاله والفوز برضوانه الأكبر ، لأنهم رضى الله عنهم كانوا أهل الذكر الأكبر فأتاهم الله الرضوان الأكبر.

قوله تعالى : "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا" (41).

بعد أن بين الله لنا في كتابه أنه لا يظلم الناس شيئا ولا قدر وزن الذرة، دلت تلك الآية الشريفة على دقة الحساب ورعاية العدل والقسط ، الذى يقتضي عدم الإهمال فيما هو قدر الذرة ، فعجب الناس من ذلك فبين الله لهم أعجب من هذا فقال سبحانه.

"فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ" والمعنى أن الله تعالى يقول – إذا جاء الله تعالى من كل أمة برسولها شاهدا عليها ، مبينا ما لقيه منها من الإنكار والجحود ، أو من التسليم والقبول "وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" ظاهر هذه الآية أن الله تعالى يأتى بالأمم ويقيم رسوله حبيبنا محمداً شاهدا عليهم ، فيكون لمن أطاع الرسول كمال الفرح والهناء والمسرّة ، لأن القاضى هو الله تعالى المعبود بحق المحمود على عظيم نعماء والشاهد هو حبيبنا ورسولنا ، ونكون بين أرحم الراحمين جل جلاله وبين الرؤوف الرحيم بناء ، ويكون الخزى والذل على من كفر بالله تعالى وحاربوا رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، حيث القاضى من أسبغ عليهم نعمه روحا وجسما فكفروا به ، والشاهد من جاهد فى الله تعالى لينجيهم من عذابه فأذوه وقتلوا من قتلوا ، والحكم بالعدل والقسط حيث لا عاطفة هناك تعطف القريب على قريبه ، بل يكون لحق جل جلاله هو الظاهر.

وورد بسند الإمام ابن جرير الطبري تأويل هذه الآية ، بفهم قوله تعالى "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" قال الإمام ابن جرير في تأويل قوله تعالى "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية" قال هو رسولها فيشهد عليها أن قد أبلغهم ما أرسله الله إليهم به "وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" قال . كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه ، وروى عن السدي قال في تأويل قوله تعالى "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" قال السدي بسند ابن جرير أن النبيين يأتون يوم القيامة ومنهم من أسلم معه من قومه الواحد والاثنان والعشرة وأقل أو أكثر ، حتى يؤتى بقوم لوط عليه السلام ولم يؤمن معه إلا أبنائه ، فيقال لهم هل بلغتم ما أرسلتم به ، فيقولون نعم ، فيقال من يشهد ، فيقولون أمة محمد ، فيقال لهم أتشهدون أن الرسل أودعوا عندكم شهادة ، فيما تشهدون ، فيقولون ربنا نشهد أنهم قد بلغوا ما أرسلوا به إلى أممهم فيقال لهم من يشهد على ذلك ، فيقولون محمد ، فيدعى محمد ، فيشهد أن أمته قد صدقوا وأن الرسل قد بلغوا .

قوله تعالى : "يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" (42).

يعنى تعالى بذلك يومئذ يكون الحساب حيث تشهد الرسل على أممهم ، ونشهد نحن على الأمم السابقة عند إنكارهم شهادة الرسل ، فتتكر علينا الأمم فنستشهد برسول الله ﷺ ، فيأتي الله به وهو العبد المقبول الشهادة الصادق المصدق الذى لا ينطق عن الهوى ، فيشهد بشهادتنا فى هذا اليوم الذى يتمنى فيه "الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" .

وقد ذكر الله تعالى الذين كفروا وذكر بعدهم الذين عصوا الرسول ، فظهر من هذا أن الكفر غير معصية الرسول ، ومعصية الرسول هى مخالفة رسول الله ﷺ ، أما فيما جاءنا به من عند الله تعالى من تقرير التوحيد وبيان الكمال والجمال وجلال والبهاء والضياء والنور الخاصة بالله تعالى ، ومعصيته فى هذا كفر ، وأما معصيته عليه الصلاة والسلام فيما سنة الله من تفصيل ما أجمله الله تعالى فى العبادات والمعاملة والأخلاق فى قوله وعمله وحاله .

فإن كانت المعصية عنادا وإنكارا فهو النفاق بعينه ، وأن كانت معصيته سهوا وغفلة فى السيئات التى يكفرها الله بالتوبة .

وقوله تعالى فى الآية "وَعَصَوُا الرَّسُولَ" الظاهر معصيته فى النوع الأول وشطر النوع الثانى ، لأنه عطف المعصية على الكفر "لو تسوى بهم الأرض" أى يتمنى أهل الكفر بالله ومعصية الرسول لو تسوى بهم الأرض – ومعنى هذه الآية أن يموتوا فيدفنوا فتسوى بهم الأرض فيكونوا ترابا ، أو يتمنون أن يساوا الأرض فيكونون ترابا ولا يبعثون كما قال تعالى خبرا عن الكافرين "وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا" .

قوله تعالى "وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" أى أن الكافرين يتمنون أن تسوى بهم الأرض ولم يكونوا كذبوا على أنفسهم أمام ربهم ، حين نظروا أن الله يغفر ذنوب أهل الإيمان ما قل منها وما كثر ولا يغفر الشرك ، فمكروا وقالوا نقسم لله أننا ما أشركنا ليغفر الله لنا ، وجعلوا أن الله يعلم السر وأخفى ، إلا أنه حكم وعدل لا ينفذ أحكامه إلا بعد أن تقوم الحجة على العبد بينة جلية ، حتى يدخل جهنم وهو على كمال الإيمان بأن الله حكم عدل صبور حلیم – وهذا القسم الذى أقسموه هو ما أخبرنا الله به عنهم "والله ربنا ما كنا مشركين" فحتم الله على أفواههم ، وأمر جوارحهم بالنطق

فشهدت عليهم بما كانوا يعملون ، لديها تمنوا لو تسوى بهم الأرض ولم يكتموا الله حديثا - أى لم يقسما أمام الله كذبا ما كنا مشركين ، فكتموا شركهم بالله ومعصيتهم رسله، ولقائل أن يقول هنا - أن هذه الآية الشريفة دلت على أن المشركين تكلموا أمام الله تعالى ، وفى آيات أخرى دلالة على أن الله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم فما سبيل الجمع بينهما - والجمع بينهما أن القيامة فيها مواقف كثيرة.

فهذا الموقف مما يأذن الله تعالى فيه للمشركين أن يتكلموا ولعل هذا الموقف هو الموقف الأول الذى يجمع الله فيه الخلائق للحساب ، بدليل أن المشركين شاهدوا أن الله تعالى يغفر للمؤمنين الذنوب كلها لأنهم مؤمنون ولا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك أن يشاء ولطمعهم فى المغفرة أقسموا أنهم ليسوا مشركين.

قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَائِبًا حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا"(43).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن عبد الرحمن ابن عوف صنع طعاما وشرابا لبعض الصحابة ، فشربوا الخمر حتى ثملوا وكانت مباحة ، وإذن بالمغرب فتقدمهم رجل منهم فصلى بهم المغرب فقال : "يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وتعبدون ما أعبد فأَنْزَلَ اللهُ تعالى "لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"

وجائز أن تكون المعنى لا تدخلوا الصلاة ، وجائز أن تكون المعنى لا تقربوا محل الصلاة وإليها نحا الشافعى ومالك ، فحرم المكث فى المسجد للجنب بل والعبور فيه والقائلون "لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ" أى لا تدخلوا لم يحرموا العبور فى المسجد أن كان له بابان ، وقد ذكر الله فى هذه الآية خمسة أحكام ، حكما منها عن شارب الخمر ، فحرم عليه الدخول فى الصلاة ، فكانوا يشربون الخمر بعد العشاء فإذا أصبحوا كانوا فى فواق من السكر ، ولا يشربونها نهارا حتى يؤدوا الفرائض النهارية والليلية فى وقتها من الصبح إلى العشاء ، حتى قال عمر ابن الخطاب قعد حادثة فاجعة هى أن بعض الصحابة شربوا الخمرة حتى لعبت بعقولهم فتذكروا أيام الجاهلية ، فتفاخر الأنصار والمهاجرون حتى أشدت الخصام فرمى سعد ابن أبى وقاص رجلا من الأنصار بلحى بغير فشجه شجة جائحة ، فقال عمر اللهم أنزل لنا بيانا فى الخمر فحرمه الله تعالى.

وبعد أن نزلت آية التحريم أمر رسول الله ﷺ رجلا أن ينادى فى المدينة بتحريمها ، وكان قوم من الصحابة يشربونها فى مجلس فأمسكوا وكسروا القدور وأحرقوا الخمر وقالوا نهيتنا يا رب فانتهينا.

"حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" دليل إباحتها فى غير أوقات الصلاة قبل تحريمها البتة ، وكان الصحابة أعلم الناس بالله تعالى فكرهوا أن يشربوها نهارا فيؤخرون الصلاة حتى يعلموا ما يقولون أدبا مع الله تعالى ، وهنا يظهر لنا أن العلم يوجب المراقبة والخشية من الله تعالى ، لأن العلم كما عرفته تصور جوهر النفس رسوم المعلوم ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم فكان معالم أمامها خشع القلب وامتلا تجويفه خوفا من الله ، فلا يقع فيما حرم الله تعالى إلا ناسيا أو مكرها وعن كلاهما عفى الله تعالى ، وبهذا الحكم تعلم أن الألم إذا قدر الله تعالى عليه ذنبا يقع فيه يقظ القلب فقد يلتبس له مخرجا منه حتى يكون مباحا ، أو يتمثل جلال الله تعالى وقهرمانه فيخشع قلبه فيفر منه

— قال تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" (1) ،
وعجب لرجل يعلم أن الاستغفار طهره ويعيش فى النجاسة.
"وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا"

ينهانا الله تعالى عن الدخول فى الصلاة بغير الطهر الأكبر إلا فى حالة واحدة وهى أن يكون المسلم عابر سبيل أى مسافر لعلم مباح كالحج ، وطلب العلم والسعى على المعاش الضروري والجهد فى سبيل الله.
"حَتَّى تَغْتَسِلُوا" أى تنموا الطهر الشرعى لأن كلمة "حتى" لانتهاى الغاية بخلاف كلمة "إلى" فإنها لا ابتداء الغاية.

"وَأِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا" الواو هنا للعطف والجملة معطوفة على التى قبلها ، ولما كان الخمر نجاسة العقل ، والجنابة نجاسة الجسم ، عطف نجاسة الجسم على نجاسة العقل ووضعها موضع النهى ، ثم أتى بأربعة أحكام متشابهة وهى المرض ، والسفر ، وقضاء الحاجة ، وملامسة النساء ووضعها موضع الشرط وجواب الشرط التيمم بعد الوقوع وفعل الشرط فقد الماء لعطفه بالفاء على جملة فعل الشرط ، وجوابه التيمم ، والتيمم طهر المريض والمسافر لغير طلب الماء على المعتد ، وأن كان بعضهم قرر أن المريض والمسافر لا يتيممان إلا إذا فقدوا الماء بدليل قوله تعالى : "فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا".

فقد ورد أن رجلا من الصحابة حدث له ما يوجب الغسل وكان مريضا مرضا جليا وسأل غيره — هل أتيمم فقال له لا بد أن تغتسل فإن الله يقول : "فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا" وإباحة التيمم مشترط فيها فقد الماء فاغتسل الرجل وكان الجو باردا فمات ، بلغ ذلك رسول الله غضب غضبا شديدا وقال : "كان يكفيه كف من التراب" وهذا دليل على أن واجد الماء إذا تحقق أن الماء يزيد فى مرضه أو يؤخر برئه أو يحدث به شرا تيمم مع وجود الماء.

وقد قرر العلماء أن غير المريض والمسافر يلتمسون الماء لكل صلاة — ومن تساهل ولم يلتمس الماء وتيمم وصلى وظهر وجود الماء قريبا منه اغتسل وتوضأ وأعاد صلاته على هذا القول — وتيمم أصله يمم أى قد تقول يمم الكعبة أو يمم فلانا أى قصدته ، والتيمم هو القصد ، أى فليقصد صعيدا طيبا فإذا وجدتموه فافعلوا ما أمركم الله به ، من مسح الوجه واليدين وسمى مسح الوجه واليدين تيمما مجاز ، لأن إباحة الصلاة لا تكون إلا بالتراب ، فإن التيمم يبيح الصلاة ولا يرفع الخبث ولا الحدث.

وهنا حكمة غريبة أبينها وهى أن المراد من الوضوء هو طهارة الجوارح المجترحة مما لا يسته من صفات الذنوب التى لا يتنزه عنها الإنسان، وهى فاتحة لطهارة القلب مما لا بسه من الهمم واللمم والنوايا والقصود المكروهة ، ليعلم المتوضى أن الله ما أمره بطهارة جوارحه لوجود نجاسة حسية عليها ، بل ليوقظ قلبه أن طهارته أولى من طهارة الجوارح ، لأن الجوارح مسخرة للقلوب ، فإذا أمر الله العبد بطهارة الآلات التى هى العينان والأذنان والأنف والفم واليدين والرجلان ليس لها فى الحقيقة علم ، وإنما العمل منسوب إلى القلب لأنه سلطان الجوارح ، فلو اجب شرعا أن يطهر القلب من باب أولى.

(1) سورة الأعراف : 201.

وما توضحاً من غفل عن طهارة قلبه وطهر جوارحه ، لأنه طهر الجوارح التي يراها الناس وليس بها نجاسة حسية ، وترك القلب الذى هو محل نظر الرب ينظر إليه فإذا هو نجس وغير مول وجهه إليه جل جلاله ، وينظر الناس إليه فيرونه طاهر الجسم متقناً لطهارة الأعضاء عالماً بشروطها ودقائقها جاهلاً بوضوء القلب ، فتضرب الملائكة بصلاته وجهه ويقولون له أن الله غنى عن عمل الغافلين ، ولما كانت هذه حكمة الوضوء التي هي طهارة الجوارح لطهارة القلب ، كان مسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر كسراً للقلب ، لأنه يضع أثر التراب على وجهه ثم يضعه فى السجود على التراب ، وفى هذا العمل ذكرى أنه من التراب فيطهر من غرور نظره إلى نفسه أنه إنسان مستقيم القائمة سميع بصير متكلم ، ويقف أمام ربه حافظاً لرتبته التي تجذبه إليه جل جلاله ، وقد ذكر الله فى هذه الآية المرض والسفر وما يخرج من السبيلين وملامسة النساء ، والمرضى المعتبر شرعاً هو ما يمنع الإنسان عن القيام بالواجب . لضعف أو لخوف من تأخير براء – وليس بمريض من تمارض ليتيمم، والسفر المعتبر شرعاً أن يكون مسافة قصر – وقد فصلنا أحكامه فى كتاب "أصول الوصول".

"أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ" معلوم "أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ" ملامسة النساء اختلف العلماء فيها فمنهم من قال هي الجماع ، والله جل جلاله يكتفى من العورات ، ومنهم من قال المراد بها معناها الظاهر وهي الملامسة باليد أو بالبشرة ، وليس المراد بها الجماع وهو مذهب الشافعى الذى يقول بنقض وضوء من لمس زوجته بيده مباشرة مستنداً إلى تلك الآية ، وهو قول الظاهريين فإن نقض الوضوء باللامسة يشبه مجئ الغائط والمراد هنا من الملامسة هو الجماع الذى يقتضى الغسل.

"فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا" أى أبيعوا وقوع الصلاة بالتيمم ، فإن التيمم لا يرفع الحدث ولكنها يبيح الصلاة ، ومتى أباحها لا يعيدها فاعلها ، وقد اشترط العلماء طلب الماء لكل صلاة لا للمريض ، لأن قوله "فلم تجدوا ماء" دل على أن الوجود لا يكون إلا بعد الطلب ، وأن ورد فى القرآن لفظة وجد كثيراً منسوبة إلى الله ، وهو سبحانه لا يجد الشئ بعد طلبه تنزه وتعالى ، لأننا لا نحكم على الغيب بالمحسوس المشهود ، وكذلك شرط طلب الماء لكل صلاة أى تطلبوا فلم تجدوا . والصعيد الطيب هو التراب الذى يعلو وجه الأرض مأخوذ من صعيد فهو صاعد .

ولما كان الفعل لازماً كان اسم الفاعل منه على وزن فعيل ، وعلى ذلك منع الشافعى التيمم على الأحجار ، ليس عليها صعيد ، وأباح ذلك أبو حنيفة لأنه فهم صعيداً أى صاعداً فوق ظهر الحجر ، والمد والارض ، فالقرآن لم يعين فى ذلك شيئاً ، والطيب شرعاً هو الطاهر الذى لا يشوبه طعم نجاسة ولا ريحها ولا لونها .

"فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ" بعد أن أمرنا الله بالتيمم وقد أخبرنا أنه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، كان لابد لنا من العلم بما يحبه ويرضاه منا ، بين لنا أجماً علم التيمم ثم فصله لنا رسول الله ﷺ فإن الصحابة رضى الله عنهم فهم بعضهم أن اليدين إلى الكوعين ، وفهم بعضهم إلى المرفقين وفهم بعضهم إلى الكتفين ، فلما عمل رسول الله ﷺ التيمم أمامهم إلى المرفقين ، علموا تفصيل التيمم ، وبين لنا أنه لا بد لنا من ضربتين على الصعيد واحدة للوجه وأخرى لليدين ، وبين لنا العمل بنفسه كما بين لنا فضائل الإسلام وسننه عملاً لا قولاً فقط .

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا" عفوا أى يبذل السيئات بحسنات ، غفورا أى يستر الذنوب كلها ، لن الغفر هو الستر ومنه الغفر تستر به المرأة وجهها ورأسها ، وهو ما يستر به المحارب رأسه

من آلات الحرب ، والغفور الذى يستر عيوب عبده ، فإن الغفر والكفر والستر بمعنى واحدة ، ولذلك يسمى الحراث كافرا لأنه يستر الحبة بالتراب.

وهذه الآية الشريفة بشرى من الله لأهل الإيمان ، أنه يقبل منهم الرخص كما يقبل العزائم لأنه عفو غفور ، ومن لم يقبل رخص الله تعالى لم يقبل الله منه عزائمه.

قوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ"(44).

"أَلَمْ تَرَ" تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة فى قوله : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ" والرؤيا هنا رؤية العلم الذى منحه الله لرسوله وللؤمنين ، بأن من أعلمه الله خبرا عمن سبقنا من الأمم كن أقوى فى اليقين ممن رآه بعنى رأسه ، ولما أن بين الله تعالى فى هذه السورة الأحكام المتعلقة بالعبادة والمعاملة والزوجية والمواريث ، بين الله لنا العبر وأخبار الأمم السالفة وما كانوا عليه بالنسبة لأنبيائهم وبالنسبة لمحمدع لطفا به من أن يتأثر بتكذيب اليهود له.

"الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ" هم اليهود بدليل قوله سبحانه "من الذين هادوا" بد وفى قوله تعالى : "نصييا" إشارة إلى أنهم أعطوا جزءا قليلا من الكتاب ، والكتاب مراد به التوراة لدخول آل عليه ، وهذه الآية مدح من الله لنا لأننا أوتينا الكتاب كله بدليل قوله سبحانه " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"(1).

"يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ" الشراء معلوم وهو المبادلة ، واليهود قبحهم الله لا يقبلون الهدى الذى جاءهم به محمدع ويستبدلونه بالضلالة ، وهى الكفر بالله تعالى والجحود برسول الله عليه الصلاة والسلام ، والباء تدخل فى وأشتري على المبدول فى التبادل وعلى المأخوذ فى البيع ، فيقال اشتريت الشاة بدينار ن أى بذلت دينارا وأخذت الشاة ، وبعت الشاة بدينار ، أى بذلت الشاة وأخذت دينارا فإذا وضع كل لفظ منهما مكان الآخر روعى فيه تلك القاعدة.

"وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ" أى ويحبون ردكم عن الإسلام فيكونون ضلوا وأضلوا عنادا من أنفسهم ، وعداوة للحق وجهلا بأنوار القرآن التى متى باشرت قلبا طهر من شوب العناد وحب الرياسة والطمع ، وهش له وبش فلا يفارقه ولا بالقتل ، وكم عذب بلال حتى كان أمية بن خلف يضع الحجر على بطنه فوق حجارة مكة الحارة ، ويأمر الغلمان أن يدوسوا على الحجر حتى تخرج أمعاؤه من دبره ويخرج لسانه من فمه ويقولون له ذم محمدا فيقول بخ بخ – أنتم المذمومون أحد أحد.

وكم عذب ياسر وامراته سمية – وكان رقيقين – عذابا لا تطيقه الجبال وهما على أكمل يقين من الإيمان ، وكم عذب رجال من الصحابة فى مكة ليفارقوا الإسلام فأبوا فرحين بعذابهم فى الله تعالى ، ولكن اليهود قاتلهم الله لم تسبق لهم الحسنى من الله تعالى – ومسلم يسمع الله تعالى يقول هذه الآيات عنهم ويرى فى قلبه عطا عليهم فى أمور دينية يكاد أن يمرق من الدين الإسلامى كما يمرق السهم من الرمية.

قوله تعالى : "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا"(45).

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى أحاط علما بأعدائنا الذين هم اليهود والنصارى ، وقد بين لنا عداوتهم فيما قصه علينا من الآيات ، فالواجب علينا معاملتهم بمقتضى الحكمة فى حال

(1) سورة المائدة : 3.

ظهورنا عليهم ، بأن نتجمل بفضائل الإسلام وأخلاقه جذبا لقلوبهم إلى الإسلام ، مع الاحتياط منهم وإذا لا قدر الله وظهروا علينا نكرم أنفسنا من أن نظهر ضعفاء ، بل نقوم لله بيقين حق متوكلين عليه سبحانه ملتجئين إليه واثقين بولايته ونصرته.

"وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا" يعنى أن الله يبشرنا أنه ولى يدفع عنا شرورهم ، ويحفظ قلوبنا من أن يشوبها شك أو ريب بأقوالهم أو أعمالهم ، ونصير ينصرنا عليهم ويذلهم لنا ، وقد فعل جل جلاله فإنه أجلى بنى قريظة والنضير إلى الشام ومكننا من خبير نصرته منه سبحانه قال تعالى : "مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ" (1).

قوله تعالى : "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا" (46).

"مِنَ الَّذِينَ هَادُوا" بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب وهى من صلتها – والآيات بينهما معترضة – وتكون القراءة ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب" من الذين هادوا ، وجائز أن تكون جملة ابتدائية ، ويكون المحذوف أما من أوتوا وتكون القراءة من الذين هادوا . قوم – أو من الخ –.

"يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" أى يغيرون ما جاء فى التوراة عن محمد ع فى سفر موسى والخليل وغيرهما ، وذلك لإرادة فتنة المسلمين رغبة فى ردتهم عن الإسلام ، ويحرفون الكلم أيضا أى التوراة عن مواضعه إذا لاح لهم طمع أو رياسة ، أو دعا إلى ذلك هوى فى نفوسهم أو شهوة ولا تعجب فأنا نرى كثيرا ممن تدعون العلم يحرفون الآيات والأحاديث إلى ما تشتهيهِ نفوسهم من الملق للملوك والأمراء أو لنيل حظ وشهوة – قال تعالى "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (2) . أما علماء الدنيا وأدعياء العلم فأنهم لا خشية فى قلوبهم وليسوا عند الله ولا عند رسوله والمؤمنين بعلماء – لأنهم تأولوا الآيات تأويلا يخرجها عن مراد الله منها.

وهذا قد يكون مقبولا عند الجهلاء من العامة ، أو عند بعض من لم يباشر التوحيد سويداء قلوبهم ، وصدق الله العظيم فأنا نرى دعاة النصرانية الذين هم جنود الظلم والاستبداد مع جهالتهم باللغة العربية يؤولون آيات القرآن الواردة والإنجيل بجهلهم تأويلا لا يقبله من له مسحة من العقل ، وقاتل الله الطمع والحرص على الظلم والانتقام بقوة سلطان البغى.

"وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا" وهذه الآية ذم من الله تعالى لليهود معاصرى رسول الله ع ، الذين كانوا إذا أقام الله تعالى عليهم الحجة قالوا سمعنا بألسنتهم وقالوا عصينا بقلوبهم ، معتقدين أن الله لا يكشف الستر عنهم.

"وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ" أى يطلبون من رسول الله ع أن يسمع منهم وقلوبهم تقول غير مسمع لنا ، أى أنهم لا يقبلون منه ع نادا من أنفسهم.

(1) سورة الحشر : 7.

(2) سورة فاطر : 28.

"وَرَاعَنَا لِيَّا بِالسِّنْتِهِمْ" – أى انظرونا . وليا أى يلوون ألسنتهم استهزاء ، فيفيهم من أعوجاج ألسنتهم فى الكلام أنهم هازئون ، وليس مرادهم انظرونا بل هم يشيرون إلى الرعونة أو إلى رعاية الماشية.

"وَطَعْنَا فِي الدِّينِ" أى أنهم يطعنون بتحريفهم وتأويلهم الباطل فى الإسلام.
"وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ" يبين الله لنا أن اليهود يعلمون حق العلم رسالة محمدع وكان الأولى لهم مع علمهم أن يقولوا بعد ظهور الحق سمعناه سماع قبول ، وأطعنا أى قبلنا ما جئتنا به من عند الله قبول أهل الطاعة لله ولرسولهع ، وأسمع منا القبول والاستجابة لأمرك ، وانظرونا أى انتظرونا أو أرضنا حتى نظهر إسلامنا أمامك ، فكان خيرا لهم فى الدنيا بحفظ دمائهم وأموالهم ، وغفران الله تعالى شركهم وكبائرهم الأخرى وسعادتهم يوم القيامة بالنعيم المقيم – وأقوم – أى أقسط وأعدل وأصوب وأحق ما يقوم به من أتاهاهم الله الكتاب.

"وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا" اللعنة هى الطرد عن الرحمة لعداوتهم للحق ، وجدهم ما أنزله الله عليهم فى التوراة ، وتحريفهم ما بينه الله لهم فى كتبهم التى أنزلها عليهم من رسالة حبيبه محمدع ، وعلاماته ومولده وهجرته وما بشر به موسى عنهع وعيس عليه السلام ، فقد ورد فى التوراة بشائر كثيرة عن موسى بن عمران عليه السلام ، وعن عيسى بن مريم فى أول كلمة فى إنجيل يوحنا عندما سأله اليهود أيليا أنت قال لا – المسيح أنت قال لا – الرسول أنت قال لا – فأتبتوا بسؤال لهم أنهم ينتظرون رسولا يأتى بعد المسيح ، فقال عيسى بن مريم بعد أن ذكر رسول اللهع وأنه يأتى بالسيف ، قال أتمنى أن أحمل حذاءه وغير ذلك ، مما لو فهموه بعقول سليمة من الهوى والحظ والطمع لساروا إلى الإيمان برسول اللهع - كل تلك الحجج الناصعة التى تكاد تكون ملموسة محسوسة بإنكارهم لها لعنهم الله ، واللعنة أيضا هى الخزى والذل والهوان ولا تكون اللعنة عبثا ، فإن الله تعالى حكم عدل لا يظلم الناس شيئا ، وتلك اللعنة دلت على أن اليهود تعدوا حدود الله بإفراط فى العناد ، وتركوا أوامر الله بتفريط جحودا ، وكانوا كإبليس عملا وأن كانوا غيره نوعا ، وإنما هى الأعمال ترد علي عاملها.

"فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا" فلا يحصل منهم الإيمان إلا بما تهواه نفوسهم ، فيحصلون ما يرضى أطماعهم ويظهرون أن هذا من الدين ويكفرون بما يخالف طبعهم الخبيث ونفوسهم الأمارة بالسوء ، أى فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا.

قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"(47).

ينادى الله تعالى اليهود والنصارى الذين قامت الحجة القاصمة لظهورهم على صدق ما جاءهم به محمدع ، وتلك الحجة أنواع أولها المعجزات التى هى فى قوة قوله تعالى : " صدق عبدى فاتبعوه" فإنهع أكرمه الله تعالى بما لا يقدر على فعه إلا الله جل جلاله ، ولو أن ملكا عظيما جلس بين قومه ثم قام رجل فقال أنا وكيل الملك ، والدليل على صدقى أن الملك يقف ويمشى خطوتين إلى الأمام ، فقام الملك ومشى الخطوتين ورجع فجلس تكون تلك حجة على صدقه ، فكذلك الله تعالى أظهر على يد حبيبه محمدع آثارا عجيبة لا يقدر على إظهارها إلا الله ، ثم أظهر على لسانه من المعجزات الباهرات ما يحتم على اليهود أن تخشع قلوبهم عند سماعه ، كأخباره بالغيب

الذى لا يعمله إلا أحبارهم من قصص الأنبياء ، وأخبار الأولين ومن بيان الأسفار التى بين الله فيها صدق بعثه ، وصفاته ومحل مولده وهجرته ، وأنه خاتم الرسل ، حتى جاء وفد اليهود فسمعوا منه وصدقوه ، وبعد ذلك توجهوا إلى كعب ابن الاشرف وكان يعطيهم أموالا كثيرة كل عام ، فلما رأهم هددهم بحرمانهم من الأموال لأنهم صدقوا محمداً وشهدوا عنده بما فى الكتب السماوية لديهم من أخباره ، فانقلبوا قاتلهم الله وقالوا أن نبي آخر الزمان من أولاد يعقوب سبط الأنبياء ، وأنكروا ما فى التوراة بدليل قوله تعالى : "يحرفون الكلم".

وبعد تلك الحجج يجب أن يكون الإيمان كشط من الحقيقة الإنسانية بسطوع أنواره التى هى أعظم انتشارا من أشعة الشمس ، ولكن اليهود قبحهم الله على قلوبهم أفعالها وعلى أبصارهم غشاوة وفى آذانهم وقر.

وهذه الآية الشريفة تشير إلى أن دلائل الإيمان لا تحتاج إلى مقدرات وقضايا وأشكال ونتائج ، ولو أن من على قلبه قفل قامت له الحجج بكل معانيها لما قبل عن الله ما أرسل به الرسل عليهم السلام ، ومن يهدى من أضل الله - قال تعالى : "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"⁽¹⁾ وقال سبحانه "قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ"⁽²⁾ وهذه الآية حجة على من يزعم أن المؤمن المقلد ضعيف الإيمان ولا بد من تلقى الإيمان بالأدلة العقلية ، وقد بينت ذلك فيما سبق ببراهينه.

"بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ" أى بالكتاب الذى أنزلنا على خاتم الأنبياء الذى صدق ما معكم من الكتب المنزلة على رسل الله من قبل عليهم السلام، وكونه معهم وفيه بيان بعثة رسول الله.

وفيه أيضا أخبار الرسل والأنبياء السابقين مما لا يعرفه إلا الراسخون فى العلم من اليهود ولا علم للعرب به ، لأن العرب كانوا قبل محمد فى جاهلية عمياء صماء لا يكتبون ولا يقرءون ، وهذه الأسرار التى بينها القرآن من أعظم المعجزات الموجبة لإيمان من سبق له علم بها.

"مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ" لأهل الظاهر فى هذه تأويل وهو أن طمس الوجه محو الجوارح المجترحة فيه أو تحويله إلى القفا بدليل قوله تعالى : "فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا" وهذه عقوبة لهم من الله تعالى لم يعاقبهم بها سبحانه ، لأن قوله تعالى "آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا" متصل بقوله : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ" الآية وما بعدها من الآيات كلها بيان لدعوتهم إلى الحق ، وترك ما كانوا يفعلونه من أعمال الإنكار والعدوان ، وفى هذه الآية بيان الانتقام منهم، وتحذير لهم من طمس وجوههم وردّها إلى أدبارها ، أو لعنهم كما لعن أصحاب السبت ، والله سبحانه ينفذ فيهم إحدى النقيمتين ، وقد نفذ اللعنة عليهم أعادنا الله بوجهه الكريم ، وقدر أن لا يطمس الوجود بعد ردها إلى الأدبار ، وهذا فهم أهل الظاهر.

وللعلماء فى ذلك تأويلات أخرى ، منها أن نطمس وجوههم أى نعمى أبصارهم عن نظر العبرة فى آيات الله ، "فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا" ، أى فنرجعها إلى الحضيض الأسفل أو نلعنهم وتأويل آخر وهو أن نطمس وجوههم ، أى نجعلهم فى صور الأناسي وحقيقتهم التى تصدر عنها أعمالهم وأقوالهم وهمهم ولمهم حقيقة فرد أو خنزير.

ومن التأويل فى فهم أهل الذوق ، أن المؤمن السالك طريق الله مسارع إلى مغفرة الله وعفوه وفضله وإحسانه والإقبال بالكلية عليه حتى يصل إلى ملكوت الله تعالى ، ويبلغ الفضل العظيم فى

(1) سورة القصص : 56.

(2) سورة آل عمران : 73.

مقعد صدق عند مليك مقتدر فيفوز بالرضوان الأكبر وبرؤية وجه الله الكريم ، وتكون صورته صورة إنسان وحقيقته نورانية فوق الملائكة ، والملائكة يدخلون عليه من كل باب في الجنة لخدمته وتبليغه السلام من السلام جل جلاله ، وبذلك يكون متجملا بالجمال الذي يجعله صورة الرحمن ، فيرفعه الله عن الرتبة الإنسانية إلى أعلى عليين ممن استثناهم الله في القرآن بعد ذكر الإنسان بقوله **"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"**⁽¹⁾ ومن كفر وجحد ما جاء به رسول الله من عند الله تعالى طمس الله وجهه وحوله إلى قفاه ولعنه.

وقد يطلق الوجه ويراد به الحقيقة كلها ، وقال بعضهم طمس الوجه أن يكون كوجه القرد فينبت فيه الشعر كوجوه القردة ، أى بعد أن كان الشعر فى أسفل الوجه يكون فى أعلاه ووسطه كالقرد ، وقد فعل الله بهم ذلك فتراهم يحلقون الشعور التى فى وجوههم ، وقول أهل الظاهر أقرب للعقول ، وأن الله توعدهم بنقمتين عجل لهم واحدة منهما وهى اللعنة ، قال بعض العلماء أن طمس الوجوه وتحويلها إلى الدبر ، سيكون يوم القيامة دليل قوله **"من قل أن نطمس" أى من قبل أن يموتوا ويبعثوا فنطمس** : كل هذه التأويلات جائزة الوقوع حفظنا الله من وعيد الله وأقامنا فيما يحبه ويرضاه.

"أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ" . هذه الآية هى الوعيد الذى يهدد الله به اليهود والنصارى الذين أنكروا ما أنزل الله على رسوله وخاتم أنبيائه ع ، وهو أحد الوعدين والوعيد الأول تقدم لك وهو قوله تعالى : **"أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا"** والمحققون يرون أن وعيد اللعنة قد وقع بالفعل فى اليهود لأن اللعنة هى الخزي والذل ، وقد أخزاهم الله فى الدنيا إلا من آمن ، وسيطردهم عن رحمته يوم القيامة وقوله **"كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ"** أى كما أخزينا وأذللنا وطردنا عن رحمتنا أصحاب السبت ، وقد تقدم الكلام عليهم فى سورة البقرة.

"وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" أمر الله هنا المقصود به مراد الله الكائن الذى يأمر بتنفيذه وإظهاره ، وقد قدمت لك أن المراد قسمان ، مراد كائن ومراد محبوب ، فالمراد الكائن لا بد من ظهوره وأحداثه ولو كان كفرا ، والمراد المحبوب فإنه يكون وقد لا يكون ، وهو ما يتعلق بإيجاد ما يحبه من تكاليف العبادات وبيان الآداب التى يحب أن يكون عليها العبد بالنسبة لله ولرسوله ، وأمر الله هنا هو مراده الكائن الذى يأذن فى إحداثه وإظهاره ، وليس المراد به الأمر الذى هو ضد النهى ، بل مراده الكائن الذى أذن فى إظهاره كما قررت لك مفعولا أى كائنا أثره ولا مناص من ظهوره . قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا"** (48).

أن الله تعالى هدد اليهود وتوعدهم بالعذاب وبسرير النعمة على ارتكابهم الكبائر ، وسبب هذه الآيات خوف شديد لأهل الإيمان أن يكون هذا التهديد لكل مرتكب كبيرة ، حتى كان الصحابة رضى الله عنهم إذا مات رجل شرب الخمر أو زنا أو فعل كبيرة لم يشهدوا له بالخير وشهدوا له بالعذاب ، فلما نزلت هذه الآية الشريفة أمسكوا وطمعوا فى عفو الله وفضله لكل من مات مؤمنا مهما ارتكب الكبائر .

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله لا يغفر لعبد من عباده الشرك ، لأن المشرك بعد وضوح دلائل الإيمان ووضوح حججه الناصعة ، التى تكاد تكون أظهر من الشمس فى رائعة النهار يكون المشرك محارب لله ومعاديا له بعد إسباغ نعمه الكونية ونعمته العظمى عليهم ببعثة الرسل المبينين

(1) سورة التين : 6.

لحقائق التوحيد وشرائع الإسلام ، ويكون هذا الإنسان الذى كرمه الله على سائر خلقه وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض أعدى عدو لنفسه يلقى بها فى شر المهالك ، وقد وسعت رحمة الله فى تلك الدار الدنيا كل مراتب الوجود من النباتات والبهائم والشيياطين والأناسي والملائكة وغيرهم – قال تعالى "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ"⁽¹⁾ ولكنه تنزه وتعالى قدر أن تكون رحمته يوم القيامة قريباً من المحسنين – قال تعالى "إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ"⁽²⁾ فالرحمة فى هذا الكون وسعت كل شئ ، ولكنها يوم القيامة لا تسع إلا أهل الإيمان لا لضيقها تنزه وتعالى ولكنه سبحانه كما أنه جميل فهو جليل ، وللجمال وسعة تحيط بمن شاء أن يحيطهم بها ، وللجلال وسعة تحيط من شاء أن يحيطهم بها ، وهو الواسع فى جماله وجلاله الحكيم فى تقديره وأقداره ، فإنه جل جلاله وأن عذب حسهم وجسمهم إلى أن صاروا كلما نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها – وقد نعم أرواحهم بما فازوا به ن توحيد الله قهره لقوله خبراً عنهم "رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ"⁽³⁾ فقد بلغوا مبلغ علم الأنبياء فى الدنيا عندما رأوا العذاب فى الآخرة.

وهذه الآية حجة على أن مرتكب الكبيرة غير الشرك ، يغفر الله له بالفضل ولو لم يتب ، وما قاله بعض العلماء ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين ، من أن مرتكب الكبيرة مشرك أدحضدت حجته تلك الآية الشريفة – اللهم إلا إذا ارتكبها جاحداً بالحلال والحرام ، فإنه كافر ولو لم يرتكبها.

وأما من وقع فى السيئات فقد بشرنا الله تعالى بتكفير ما ارتكبه منها ولو لم نتب لقوله تعالى "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"⁽⁴⁾ وهذه الآية بين الله لنا فيها أن مرتكب الكبيرة غير الشرك يغفر الله له ما ارتكبه من الكبائر أن شاء أن الله هو الغفور التواب العفو الكريم ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولا خلاف فيمن تاب من الكبائر بالتوبة التى عينها الشرع الشريف مع الاستطاعة بصريح هذه الآية.

وقد أثبتت لنا تلك الآية أن اليهود والنصارى مشركين ، لأنهم بخبث طبعهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وكذبوا ، وكيف يجحدون ما أنزله عليهم عنادا منهم وكفرا ، ويحاربون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ويدعون أنهم أبناءه وأحباؤه لا – بل هم أعداؤه سبحانه ظلموا أنفسهم ظلماً عظيماً ، أشركوا بالله فجعلوا أهواءهم والتعصب لأطماعهم شريكاً لله قال سبحانه "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ"⁽⁵⁾ وأقرهم أحبارهم ورهبانهم على ذلك ، بل واتخذوا المسيح بن مريم رباً من دون الله أو أبناً لله ، مع ما بينه لهم المسيح عن حقيقته بقوله فى الإنجيل أنا لست الرجل الصالح ، إنما المعلم الصالح هو الله ، فأثبت لهم أنه رجل غير صالح ، وهم يدعون أنه الله أو ابن الله لعنة الله عليهم جميعاً ، ولو أن أهل الكتاب بعد شركهم تقربوا إلى الله بأقرب القربات ، فبذلوا أموالهم وأهرقوا دماءهم فى سبيل الله ، وأنشأوا المستشفيات وجمعيات الرفق بالحيوانات ، وطاروا بالطائرات وغاصوا بالغواصات وبلغوا من الصناعات ما به أخذت الأرض زخرفها وازينت وهم مشركون ، فإن ذلك كله لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئاً وما الحياة الدنيا إلا متاع

(1) سورة الأعراف : 156.

(2) سورة الأعراف : 56.

(3) سورة السجدة : 12.

(4) سورة النساء : 31.

(5) سورة التوبة : 31.

الغرور – قال ابن عباس "إذا كان الشرك لا ينفع معه العمل فإن الإيمان لا يضر بغير العمل" فرفعت لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسكت مقرا لها – والمعنى أن المشرك لا تنفعه الأعمال الصالحات ، وكذلك فالسيئات كلها لو وقعت من المؤمن لا تضره عند الله إذا شاء سبحانه أن يغفرها له فضلا من غير توبة ، وهنا يجب علينا أن نتجمل بحسن الظن بالله تعالى "قال في الحديث الصحيح" أنا عند طن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرني " الخ الحديث.

فلظن بالله خيرا أن شاء الله – وفى هذه الآية إشارة إلى أن كل الكبائر وأن عظمت فهى دون الشرك بدليل قوله سبحانه "ويغفر ما دون ذلك".

وقد ورد أن سبب نزول هذه الآية أن قوما من المشركين منهم وحى الذى قتل سيد الأمة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت وعدته هند هى وبعض وجوه قريش أن يعطوه قدر الدية إذا قتلته ، ولم يعطوه فندم وندم معه من شاركوه وطلبوا الإسلام ولكن خافوا أن لا يقبلهم رسول الله، فنزل قوله تعالى "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" فقال رجل من الصحابة والشرك يا نبي الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا" أى ومن يشرك بعبادة الله فيجعل الله سبحانه ندا تنزه وتعالى ، أو ولدا أو شبيهها أو نظيرا، ومن الشرك الرياء فى العمل وهو النفاق ، ومنه أيضا جعل العبادة وسيلة للفوز بمصالح الدنيا والله تعالى يقول "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ" وقد يكون الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء.

قال تعالى "وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ" وقوله "فقد افترى" أى احتمل واختلق وأبتدع كذبا على الله "إثما عظيما" – الإثم كل عمل توعد الله عليه بالعذاب – وعظيما أى بالغا حد العظمة فى القبح وسوء الأدب.

قوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا"(49).

سبب نزول هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا يقولون "نحن أبناء الله وأحباؤه" وقالوا "لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى"(1) ويقولون "إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا إِلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ"(2) ويقولون "وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ"(3) وغير ذلك ، وكانوا يقدمون أبناءهم الصغار للصلاة ويقولون أنهم أطهار ، ويقولون نحن كأطفالنا ليس لنا ذنب كما ليس لهم ذنب ، وأن الله يغفر ذنوبنا فى النهار ليلا وذنوب الليل نهارا ، وكل هذا مدح لأنفسهم وتزكية لها ، فقسم الله ظهورهم بقوله "ألم تر" – يا محمد بعيون قلبك بما علمك الله تعالى وأشهد "إلى الذين يزكون أنفسهم" أى يمدحونها بالباطل ، وذلك أن الرجل منهم إذا لقى غيره من مرتكبى الكبائر مدحه وأثنى عليه ، حتى ينسيه ذنوبه ويغره بنفسه ، فحكم الله عليهم بقوله "بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ" فليس لأهل الجهل بالله الذين تعصبوا لأبائهم واتبعوا أهواءهم وارتكبوا معاصى الله أن يزكوا أنفسهم بالباطل بل الله يزكى من يشاء ن ولمن منحه الله فضلا من لديه وإحسانا من عنده أن يشكر الله

(1) سورة البقرة : 111.

(2) سورة آل عمران : 183.

(3) سورة الشعراء : 138.

تعالى لمن من به عليه من المعرفة والحب والعلم ، كما قال بعض الأنبياء "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ" (1).

كل هذه الآيات وأمثالها مما يقوله كمل أولياء الله ، ومما يذكرونه من ممن الله عليهم ليس تزكية للنفس كما قال ع: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" فإنه فرض عليين على كل من تفضل الله عليهم بإحسانه قال تعالى "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ".

"وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا" نفى الله تعالى الظلم عن نفسه بصريح هذه الآية وغيرها ، والفتيل فى اللغة ما يخرج الإنسان من تحت أظافره ، ويفتله بين إصبعيه أو يخرج منه أصابع رجليه ويفتله ، والفتيل أيضا ما بين شقي النواة – ومن لا يظلم العبد ظلما بقدر هذا الشيء الدنيء جدا يستحيل عليه الظلم تنزه وتعالى ، والفتيل فعيل بمعنى مفعول أى مفتول قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ" بينا ذلك فيما سبق.

قوله تعالى : "انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا" (50).

انظر أمر من الله تعالى لمحمد ع ، أن تعجب من هؤلاء الذين يعلمون الحقائق بما أنزله الله تعالى فى كتبه عليهم ويجحدونها ، وياليتهم سكتوا فلم يبينوا للناس بيان الله عن خاتم الأنبياء ع ، بل عاندوا وجحدوا وأنكروا وهو العجب "كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ" يتعمدون الكذب ويختلقونه ، ويا ليتهم اختلقوا الكذب على أمثالهم من الأناسي ، ولكن أعجب كيف يختلقون على الله بعد البيان كل البيان ، وبعد ما أنزله تعالى على رسله الكرام فى أسفار التوراة ، وبعد المعجزة القاصمة لظهورهم التى أظهرها الله على يد حبيبه ع ، مما جعل قريشا تشيب شعورهم استكثارا لعظم تلك الأحداث التى تنادى بلسان الحقائق هذا فعل الله تعالى لا يقدر عليه عبد فصدق محمد ع فيما جاءنا به من عند الله تعالى.

"وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا" أى وكفى بافتراء الكذب على الله جل جلاله إثمًا مبينًا ، والإثم تقدم الكلام عليه ومبينًا على وزن فعيل بمعنى فاعل أى ظاهرا جليا لا يخفى إلا على من أعماه العناد والشرك.

قوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا" (51).

"يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ" سبب نزول هذه الآية أن كعب ابن الاشرف وحى بن أخطب اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشا على محاربة رسول الله ع ، فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقر إلى محمد منكم إلينا ، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت ، لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس ، وقال لهم أبو سفيان نحن أهدى سبيلا أم محمد ، فقال لهم كعب ماذا يقول محمد فقال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك ن قال وما دينكم ، قالوا نحن ولادة البيت ونسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى ، وذكروا أفعالهم ، فقال أنتم أهدى سبيلا ، والجبت أصله الجبس بدلت السين تاء وهى الأصنام ، والطاغوت من الطاغية وهو إبليس ، وقيل أن الجبت كعب بن الاشرف ، والطاغوت حى بن أخطب ، وإيمانهم بالجبت والطاغوت بدليل سجودهم للأصنام ، عجيب يدل على خبت طباعهم وعلى عناد نفوسهم حرصا على الرياسة وعلى عرض الدنيا الفانية.

(1) سورة يوسف : 101.

"وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا" أى مشركى مكة "هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا" أى أنتم أهدى من رسول الله وأصحابه ، وهو نهاية الكفر بالله تعالى – أقول نهايته لأنهم يخالفون ما يعلمونه حقا.

قوله تعالى : "أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا" (52).

الإشارة إلى من أخبرنا الله عنهم بأنهم آتاهم الله نصيبا من الكتاب وآمنوا بالجبت والطاغوت حكم عليهم سبحانه باللعن وهو الخزى والذل والطرده عن رحمته جل جلاله – "وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا" هذه الجملة الشرطية دليل على طردهم من رحمة الله تعالى ، وعلى خزيهم يوم القيامة خزيا يجعلهم مخلدين فى نار جهنم ، ومع شدة عذابهم لا يجدون نصيرا ينصرهم ، ولا شفيعا يشفع لهم فيحيط بهم العذاب حسا ومعنى ، ويكون عذابهم معنى أشد من عذابهم حسا ، حيث تكون الحسرة على إفراطهم فى جنب الله وآلام العذاب الأليم ، ينضج جلودهم ويطلع على أفئدتهم أعادنا الله من الوقوع فيما يغضب الله ن ويغضب رسوله.

قوله تعالى : "أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا" (53).

سبق أن شنع الله على اليهود بما هو أشر من الكفر وبالجهل المركب ، لأنهم اعتقدوا أن عبادة الأوثان خير من عبادة الله – وأم هنا بمعنى "بل".

وجائز أن تكون منقطعة إذا كانت الآية منفصلة ، وأن تكون متصلة إذا ارتبطت الآية بما قبلها فتكون بمعنى التعجب ، وأم إذا سبقتها همزة الاستفهام كان حكمها الاتصال أو الانفصال ، فإذا لم يسبقها همزة الاستفهام كانت الميم صلة والاستفهام هنا للإنكار ، أى ليس لهم نصيب من الملك ، ولو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بالنقير أن يعطوه الناس ، والنقير هو النقطة التى على ظهر النواة.

والمعنى لا مسكوا أيديهم أن يبدلوا للناس شيئا ، ولما كان البخل من الصفات القبيحة التى تدل على كفر الإنسان بالله وعدم تصديق وعده سبحانه ، وكان اليهود قبحهم الله فضلا عما حاربوا به رسل الله عليهم الصلاة والسلام موصوفين بالبخل وحكم عليهم بأنهم شر الخلق على الإطلاق ، وقوم يحكم الله عليهم بأنهم لو كان لهم نصيب من الملك لم يعطوا الناس نقيرا أى النقطة التى على ظهر النواة ، لابد وأن يكونوا ممن سجل الله عليهم الخلود فى نار جهنم ، لأنهم بين الناس كالشياطين أو كالوحوش الكاسرة أعادنا الله من شرهم وأخزاهم وأذلهم لنا.

قوله تعالى : "أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا" (54).

"وَالْحِكْمَةُ" هى النور الذى يجعله الله فى القلب يراعى بمقتضاه أقواله وأحواله وأعماله حتى يكون بذلك موصوفا بالحكمة ، وكل عمل يخالف الحكمة فهو خبط وكيد ومكر ، أو هوى وحظ.

"وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا" الملك العظيم هنا بالنسبة للأرواح لا يقدر ، فإن الله تعالى كاشفهم بغيبه المصون مكاشفة جعلت السموات والأرض مسخرة لهم تسخييرا وجوديا شهوديا ، والملك العظيم بالنسبة للأشباح قد ذكره الله فى القرآن ، فقد ألان الحديد لداود وأوبت معه الجبال ، وقتل داود جالوت وأعطى سليمان ملك الأنس والجن والوحوش وتسخير الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر ، فلا عجب إذا أعطي محمدا وآله ما هو خير من ذلك فى الدنيا والآخرة ، وهى سنة الله الماضية فى رسله وأنبيائه من قبل.

قوله تعالى : "فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا" (55).

"وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ" أى أعرض وجائز أن يكون منهم من آمن بما أنزل الله على رسله السابقين ، ومنهم من صد عنه إيضاحا لما عليه الناس من بعثة الرسل ، من إقبال ومن صدود من سبقت لهم السوءى وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ وطمأنينة لقلبه ، لأن الله بين فى هذه الآية أن الناس منهم الوسط ومنهم الطرف ، والوسط هم الذين يتبعون الرسل ، والطرف أما شياطين أو حوش ، فإن طرف الإفراط هم المتشبهون بالشياطين ، وطرف التقريط هم المتشبهون بالحيوانات الوحشية.

"وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا" سعيرا أى مسعرة شديدة اللهب موقدة بهم فهم حطبها يوقدهم الله ويسعرهم فيها.

قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا" (56).

بعد أن بين الله تعالى أن العالم الإنساني قسمان ن قسم منحه الهداية والعناية فآمن برسول الله وبمحمد ﷺ ، وقسم لم تسبق له الحسنى فصد عما جاء به الرسل عليهم السلام ، وحكم على أهل الصدود "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا" وقد بينت لك معنى الكفر فى أوائل السورة التى تذكر فيها البقرة فى قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" وهذه الآية بينت لنا جليا أن من أنكر جمال الله أو بهاءه أو نوره أو جلاله أو كماله سبحانه ، أو أنكر رسولا من الرسل ، أو كتابا من الكتب ، أو حكما من الأحكام ، أو غيبا من الغيوب التى أخبرنا بها القرآن فهو كافر ، لأنه سبحانه يقول "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا" ولم يقل بالله ومن أنكر ما هو معلوما من الدين بالضرورة فهو كافر ، كإنكار الجنة والنار والحساب والحشر والنشر وما أشبه ذلك ، وحكم الله على الكفار بآياته بقوله.

"سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا" أى أنهم يوم القيامة سيصليهم النار سبحانه ، والصلاء هو الشئ أى يشويهم فى النار.

"كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا" هذه الآية صريحة فى دخولهم الأبدى فى النار ، لأنه سبحانه تنزه عن أن يعذب واقعا على غير المذنبين ، ولا يكون ذلك عدلا ، ولكن جائز أن تقول أن النضج غير النضيج ، وتكون المعنى أن الجلود هى إلا أن جهنم كلما أنضجتها تجددت لها حياة ، فالذى يبذل هو المعنى لا المبني ، وهذا المعنى بدليل قوله تعالى "لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ" وهنا نقول . أن أهل جهنم لم يفقدوا إحساس العذاب ولكن المعنى أنهم دائموا العذاب لا يفتر عنهم.

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا" تقديم بيان هذه الآية وأمثالها ولكن الله هنا قال "عزیزا" أى أنه جل جلاله إذا أنتقم ينتقم بقوة وقهر – حكيم فى أن جعل جهنم لأهل الكفر بالله ، ولو قال قائل أن الخلود الأبدى فى نار جهنم ربما فهم فيه أهل الجهالة أنه ليس من الرحمة ، وأنا أرد عليهم بأن أقول لهم أن الله رحيم وقهار ومنتقم ، فهو كامل فى كل أسمائه وصفاته ، خلق قوما للرحمة ورحمته فوق أن تصورهما العقول أو تمثلها الأرواح لوسعتها ، وكذلك قهره وانتقامه كرحمته جل جلاله من حيث عجز القلوب عن تحديد مقدارهما ، وكل ذلك من حكمته جل وعلا وهو الحكيم سبحانه.

قوله تعالى : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا" (57).

قدم خبر الكفار عن خبر المؤمنين لحكمة عليه ، وهى أنه سبحانه بين أحوالهم التى تقتضى لعنهم ودخلوهم فى النار ، وأتى بالخبر عن المؤمنين حتى تتروح أرواح أهل الإيمان بعد ما يعرفونهم من الخوف عند ذكر آيات العذاب ، ومعنى هذه الآية أن الذين صدقوا الله ورسوله بالقلب واللسان سارعوا إلى القيام بأوامر الله تعالى.

"وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" عطف وعملوا الصالحات على الذين آمنوا ، دليل على أن الإيمان شئ وعمل الصالحات شئ آخر ، لأن الإيمان عمل من أعمال القلوب وهو عقد القلب على عقيدة التوحيد ، وعمل الصالحات علم الجوارح بما أمرنا الله به ، ومن انعقد قلبه على الإيمان ولم يعمل بجوارحه لم ينال وعد الله فى هذه الآية ، وأن لم نحكم عليه بالكفر ومن عمل بجوارحه ولم يعقد قلبه على عقيدة التوحيد متلقيا لها من عالم عارف بالله خاشع القلب والجوارح ، من هيبة الله فهو منافق كافر وربما كان شرا من الكفار لأننا جماعة الإيمان نراه مؤمنا فنأمنه ونأنس به وهو عين شيطان بيننا ، قال تعالى "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ"⁽¹⁾ وعلى هذا فالإيمان والإسلام كحبة القمح بها سن ونشا وأن لم تجمع بينهما لم تكن حبة قمح ، فكذلك الإسلام والإيمان أن لم تجتمعا على المرء حتى ينعقد قلبه على العقيدة الحقّة ويعمل بجوارحه فى طاعة الله فليس بمسلم ولا بمؤمن ، بدليل هذه الآية وهى قوله تعالى.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" فلا إيمان بغير العمل الصالح ولا عمل صالح بغير إيمان ، وقد بينت لك أن العامل بجوارحه المكذب بقلبه منافق ، والمؤمن بقلبه تارك العمل بجوارحه فاسق ، ولا ذنب علينا إذا رميناه بالكفر لانا أمرنا أن نحكم بالظاهر ولو كان مؤمنا عند الله.

"سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" لنا هنا أن نؤنس النفس لما قال تعالى "سندخلهم جنان" يعنى يوم القيامة تمثلت عقولنا ما عندنا من البساتين والجنان ، وتذكرنا ما نناله من العناء فى الماء والحرارة والتعب والشقاء من عوارض السماء وآفات الأرض ، بالنسبة للبساتين فبشرنا بقوله "تجرى من تحتها الأنهار" حتى لا نتعب فى سقيها ، ولما بشرنا بهذا ، وعلمنا براحة قلوبنا وأبداننا فى سقيها تذكرنا الوحشة التى تحصل لنا عند الموت ، فقلنا بعد أن ينعمنا ربنا فى تلك البساتين والحدائق العناء يأتينا مفرق الجماعات ومزمل النساء وميتم الأطفال ، فيكون وراء هذا النعيم حزن فطمأن قلوبنا بقوله.

"خَالِدِينَ فِيهَا" فلما قال ذلك تصورنا الخلود هذا أنه طول عمر أو مة زمن وتنتهي ويأتى الهم بعد الفرج ، فأزال ما ورد على قلوبنا بقوله "أبدا" فاحتقرنا الدنيا وما فيها إلى جانب هذا النعيم وفررنا إلى ربنا بقلوبنا حيث هذا النعيم ، ومن هنا تحققت الأبدية للمؤمن والكافر ، الكافر الذى مات على الكفر ، والمؤمن مطلقا ولو ارتكب الكبائر ولم يتب ومات على غير توبة بدليل قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" فلم يقيد هذا الحكم بتوبة ، ومتى تفضل ربك جل جلاله لا يسأل عما يفعل.

"وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا" لما كانت بلاد العرب شديدة الحرارة ، وكان الظل بها قليلا جدا فتراهم يرون الظل أمنا وأنسا وبهجة وراحة لهم ، لذلك يقولون يقال السلطان ظل الله فى الأرض ، ويقول سبعه يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، أى يمنحهم الأمن من شدائد يوم القيامة ويؤنسهم

(1) سورة النساء : 145.

ويفرحهم ويريح أبدانهم وقلوبهم ، وإذا كان هذا هو الظل فكيف بالظل الظليل ، ويكون معنى الآية أى يدخلهم الجنة العالية خالدين فيها أبداً فى أمن وبهجة ومسرة وحبور.

قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" (58).

بعد أن بين الله تعالى أخبار أهل الكتاب ، وما توعدهم به سبحانه وشرح جملاً من الأحكام وبين ما وعد أحبابه المؤمنين ، تفضل ببيان الأحكام فقال سبحانه "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" وسبب نزول هذه الآية على ما ورد أن اليهود خانوا أمانة الله فى كتبه ، فقالوا لمشركي قريش أنكم أهدي سبيلاً من المؤمنين ، وسببها أيضاً أن عثمان بن طلحة يوم فتح مكة أغلق الكعبة وأخذ مفتاحها وصعد على سطح داره ، فأمر رسول الله عليه أن يأتيه بالمفتاح ، فطلبه من عثمان فأبى فلوى ذراعه وأخذه ، ففتح رسول الله الكعبة وصلى بها ركعتين ، وخرج فقال له العباس بن عبد المطلب يا رسول الله أعطني سدانة الكعبة مع السقاية ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأعطى المفتاح لعلي ليعطيه لعثمان ، فقال له أنك آذيتنى وقهرتني على المفتاح فما الذى ردك به ، فأخبره بنزول الآية فأسلم عثمان وحسن إسلامه ، والسبب وأن كان خاصاً فالحكم عام.

الأمانة أما أن تكون لله تعالى أو للرسول ، أو للوالدين أو لولاة أمور المسلمين ، أو لعامة المسلمين فى المعاملة ، فأمانة الله التى ائتمنتك عليها هى أولاً جوارحك من سمع وبصر وشم ولسان وبطن وفرج ويدين ورجلين فما مكنك من العمل بها فى الصحة ، أما أعضاؤك الباطنة القلب والكبد والكليتان والطحال والمعدة وغيرها ، فهى أمانة عندك لتحافظ عليها من التهاون فيها حتى لا تقع فى المرض ، ولكنها ليست تحت حكمك ولا رأيك ، وأمانة الله أيضاً هى القرآن المجيد ، وآياته المتجلية فى سائر الكائنات وفى السماء وما أظلت وفى الأرض وما أقلت وفى الريح وما أذرت مما أودعها الله من الخير لك ، والمنافع فإنها أمانة يجب أن تنتفع بها شاكرًا ربك ذاكرًا له سبحانه ، متبرئاً من حولك وقوتك عند استعمالها ، مشاهداً أنها نعم الله التى تفضل بها سبحانه عليك ، ومن غفل عنها ونس أنها فضل من الله بلا حول منه وقوة كان غافلاً ، ومن نسب ذلك إلى نفسه أو إلى مخلوق فهو مشرك ، وهى الأمانة التى يسأل عنها الإنسان يوم القيامة قبل كل سؤال ، وأمانة الله أيضاً هى أمره ونهيه الذى كلفك به مع الاستطاعة ، ونهيه الذى نهاك عنه فى كل الأحوال إلا ما اضطررت إليه فأباحه رخصة لك عند الضرورة الفادحة.

قال تعالى "فَمَنِ اضْطُرَّ" وأمانة الله تعالى أيضاً رسالة وورثته الذين أقامهم الله لدعوة الناس إلى الإسلام ، ولتجديد السنة وإعلاء الكلمة ، وأمانة رسول الله عليه هى سنته عليه الصلاة والسلام التى يجب أن نعص عليها بالنواجذ ونجددها أن اندرست ، وورثته من العلماء العاملين وآل بيته وورثته من الأتقياء العاملين ، وأمانة الوالدين أن تبرهما فى حياتهما وبعد موتهما فأما برهما فى حياتهما فأن تطعمهما من مالك وأن كان لهما مال ، وأن تسمع وتطيع لهما وأن تجتهد فى أن تدخل السرور عليهما بقدر طاقتك ولو كانا كافرين ، إلا إذا منعك عن الإسلام ، أو جاهدك على أن تشرك بالله شيئاً فلا تطعمهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً – وللوالدة بر فوق بر الوالد ، سأل رجل رسول الله فقال يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي – قال أمك – قال الرجل ثم من يا رسول الله قال أمك ، قال ثم من يا رسول الله ، قال أمك ، قال ثم من قال أبوك فجعل للام ثلاثة حقوق وجعل للأب حقاً واحداً.

أما أمانة ولاية الأمور فإن بعض العلماء قال أن الآية نزلت حكم على ولاية الأمور ، والأمانة التي يطالبهم الله بها هي قيام الدين بإعلاء كلمة الله ، وتجديد سنة رسول الله ، وحفظ ثغور المسلمين ، ودفع الكفار والمنافقين والغلاة في الدين بما أمر الله به ، وإعطاء كل ذي حق حقه من مال الله ، ودفع المظالم عن عباد الله بالعدل ، بمساواة المسلمين في رخائهم وشدتهم ، فولى الأمر مطالب بأن لا ينام حتى يكون على يقين حق براحة المسلمين ليس فيهم جائع يعلمه ، وعليه أن يحفظ أنفاسه وأوقاته من تنقيب وبحث عن الثغور ، وسؤاله عن أحواله أهل الأفاق ، ومسارعه إلى إقامة حدود الله على كل من وجبت عليه شرعا ، ودفع الأذى عن المسلمين خصوصا ما يضر أخلاقهم وآدابهم وعباداتهم ، وعليه أن ينشر العلم النافع ويفتح دور الصناعات والفنون ، ويشجع العمل ويقهر الظلمة ويحسن إلى الأتقياء والعلماء فإنه مسئول يوم القيامة ، فقد يوقفه الله أمامه فيأخذ منه لك مظلوم ، ويضاعف عليه العقوبة إذا هو خان الله ورسوله في عضو من أعضاء نفسه ، بأن كذب أو سمع الغيبة والنميمة ، أو نظر إلى محرم أو غش أو نظر لزوجته من تحرم عليه نظرة شهوة ، والله تعالى صبور ستار ، فقد يمهله في الدنيا ولكنه جل جلاله لا يمهله ، ومن غره الملك والسلطان فنسى المنتقم القهار هلك مع الهالكين ، والملك لا يدوم ، والديان لا يزول ، والدنيا دار علم وتحصيل للحراث ، والآخرة دار نعيم مقيم أو عذاب أليم ، وأكبر ملك يرى نفسه في الدنيا يأتي يوم القيامة يتمنى أن يكون ترابا مما يلاقيه من أليم العذاب وشديد العقاب ، حفظنا الله من لذة تنفى وعذاب يبقى ، ومن دنيا تزول وعذاب يدوم.

ولولاية الأمور واجب على المسلمين إذا هم مثلوا رسول الله وخلفاءه الراشدين وهذا الواجب هو السمع والطاعة لله ولرسوله ، ولهم قال تعالى "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ" وكان الخطاب أولا لأصحاب رسول الله يعنى وأولى الأمر الذين هم من خيرة أصحاب رسول الله الخلفاء ، وأمانة عامة للمسلمين أنواع ، منها أن كل إنسان أهله أمانة من زوجة وأولاد وخدم وإتباع ، والأسرة مملكة صغيرة ، فالوالد عليه أن يربى أولاده تربية حسنة للدين والدنيا ، وأن يرحم زوجته وخدمه وأتباعه ، وأمانة الوالد بعد موته أن يصل رحمه التي تدلى إليه من النسب ، وأن يصلى عليه في كل يوم ويدعو له ، ويسد ما عليه من الدين ويسقط عن الحج أن لم يكن حج ، ويقسم ميراثه على مستحقه من غير طمع ولا حرص خصوصا إذا كان له أولاد قصر ، فإن الواجب عليه الكبار منهم أن يحلو محل أبيهم في تربية أولاده الصغار ، وأن يجعلوهم كأبنائهم وينفقوا عليه من فضل مالهم الخاص ، ويحفظوا لهم أموالهم ويبرون والدهم بعد موته بما قدمته لك ، وأن يزوروا قبورهم ، فإن رسول الله كان نهانا عن زيارة القبور ثم أمرنا بزيارتها ، وكان يزور شهداء أحد في كل جمعة مرة ، وعلم بهذه السنة أبو بكر وعمر وغيرهما ، وكان عليه الصلاة والسلام يزور القبور في بقيع الفرق بالمدينة ، ويدخل فيدعو ويستغفر ويسأل الله لهم. وإنما جعلت زيارة القبور للاعتبار والذكرى لا للفخر والرياء ولا للندم والبكاء ، والأمانة في المعاملة أن ترد الودائع إلى أهلها عند طلبها ، وأن تؤدى دينك عند وجوده ، وألا تخون جارك في مال ولا في عرض ، والجار شرعا كل قريب من دارك إلى أربعين دارا من الجهات الأربع ، والأمانة في التجارة والصناعة والصحبة في خدمة أو سفر وتفصيل الأمانات لا يخفى على المسلمين ، فأمانة عينيك أن لا تبصر بها إلا خيرا ، وأذنيك ألا تسمع بها إلا خيرا ، ولسانك ألا تتكلم به إلا خيرا ، ويديك أن لا تبطش بهما إلا في خير ، ورجلك أن لا تسعى بها إلا إلى خير وبطنك ألا تدخل فيها إلا حلالا ، وهذه أمانة الله الغالية من حفظها حفظه الله يوم القيامة ووقاه من عذاب النار.

وأهل التقوى يديمون ذكر الله بالسنتهم إلا ما كان ضروريا من رد السلام ، أو بيع أو بيان حقائق ، ومن أدى أمانة الله تعالى جعله الله أمينا في السماء أمينا في الأرض ، فصرنه في الملك والملوك وسخر له كل شئ ، وإنما هي مراقبة الله تعالى عند كل حركة وسكنة ، فمن راقب الله لا يتحرك ولا يسكن إلا الله.

"وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" هذه الآية تدل على أن لولاية الأمور قسطا وافرا من الآية السابقة ، وقد خصها بهم بعض العلماء ، أى أن الله يقول يا ولاية أمور المسلمين "أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" والعدل والحق هو الحكم بما أنزله الله "وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"⁽¹⁾ والحكم بما أنزل الله متعين فينا بما عين الله الحكم فيه صريحا ، كقطع يد السارق ، وجلد الزانى غير المحصن ، وتعذيب المخالفين للسنة ، والعدل فيما لم يصرح بحكمة القرآن في الجزئيات يكون باجتهاد العلماء وبقياس الأحداث على أشباهها ، وكل ذلك عدل.

"إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ" يعنى أن موعظة الله هي خير لكم في دنياكم، فأنكم إذا عملتم بموعظة الله شكرتم في الدنيا ، ومكن لكم فيها بالحق، ووفقكم لمحابه ومراضية وفزتم في الآخرة برضوان الله الأكبر وبجوار الأخيار من صفوة أوليائه وأنبيائه ، قال سبحانه " فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"⁽²⁾.

"إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا" يعنى أن الله يسمع أقوالكم فى أحكامكم وشهاداتكم ، فيحسن إلى المحسن ويعاقب المسى ، فيسمع دبيب النملة على الصخرة – بصيرا – أى يبصر ما أنتم عليه من الحركات السكنات والارادات ، حتى يبصر عروق النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء فلا يخفى عليه شئ ، ومن آمن بتلك الآيات راقب الله حق المراقبة فاستحي منه فى الخلوة كما يستحي من الناس فى المجتمع أن يعمل القبيح ، وأن بعض أهل الجاهلية يظنون أنهم إذا خلوا بامرأة أجنبية أو بشخص يقتله أن الله لا يراهم ، والحقيقة أنه يراهم من حيث لا يرونه ، وقد يكون الرجل غائبا عن زوجته الشهور الطوال فإذا جاءها مشتاقا إلى ملاستها ورأى ابنه الصغير استحي أن يجامعها أمامه ، فكيف يزنى فى امرأة أجنبية والله يراه ، اللهم أن هذا من عمى البصيرة وقفل القلوب منحنا الله المراقبة ووفقنا لما يحبه ويرضاه.

قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"⁽⁵⁹⁾.

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أطيعوا الله فيما أنزله إليكم على لسان حبيبه محمدع ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم من الحقائق عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة ، وقد أخبرنا الله تعالى أن طاعة رسول الله طاعة الله بقوله: "مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"⁽³⁾ وبين سبحانه وتعالى أيضا "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"⁽⁴⁾ الآية "وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ" أولوا الأمر منا هم ولاية الأمور من الولاية والحكام والقضاء ، وشرط علينا فى إطاعتنا لهم أن يكونوا منا ،

(1) سورة المائدة : 44.

(2) سورة النساء : 69.

(3) سورة النساء : 80.

(4) سورة آل عمران : 31.

والمخاطب بهذا الخطاب هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وأولياء الأمور منا هم خيرتنا وأئمتنا الذين يسيرون فينا سيرة الخلفاء الراشدين ، والسمع والطاعة لأولى الأمر منا فريضة فرضها الله علينا ، فإذا كان ولاية الأمور ليسوا منا ، أو عملوا فينا بغير ما كان عليه سلفنا لم تجب علينا طاعتهم ، ولكن الحكمة واجبة فأن كانوا متغلبين فالقرآن بين لنا كيف نعيش معهم عيشة يحفظنا الله بها من الوقوع في غضبه ، فقال تعالى : " إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ " ⁽¹⁾ وقد أمرنا الله بالصبر والتصابير وسنة رسول الله ﷺ واسعة ، فقد مكث ثلاث عشرة سنة بمكة يدارى القوم هو وأصحابه حتى أظهر الله الحق وأذل الباطل.

وقال بعض العلماء أن أولى الأمر منا هم العلماء العاملون ، الذين يجددون سنن رسول الله ﷺ ويعلمون كلمة الله بأموالهم وأحوالهم وأعمالهم ، ولا مانع أن يكون الولاية والقضاء والحكام علماء فيكونون هم أولى الأمر ، فإن اختفى أهل الحق الذين يقيمون الحجة لله ويبينون محجة رسول الله ، وصار القوم بين حكام ظلمة وتجار ظلمة ، وعلماء حسده ، ونساء كيدات ، فعلى طالب الله أن يفر إلى شواهد الجبال يرفع له غنيمات يقمن صلبه ، خشية على نفسه من نزول عذاب الله بالقوم ، ومن ظفر في مثل هذا الزمان بقائم لله بحجة خافيا مستورا وتمسك به نجا وقليل ما هم.

وقد ورد أن رجلا من الصحابة يسمى بشر تخاصم مع يهودي ، فذهب بشر المنافق إلى كعب بن الأشرف يشكوا إليه اليهودي ، وذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي ، فكره المنافق وأخذ اليهودي وتوجه إلى عمر ابن الخطاب فرفع إليه مظلّمته ، فقال اليهودي يا عمر أن أبا القاسم قضى لي ، أو كذلك يا بشر فقال نعم ، قال مهلا حتى أدخل وأعود فأقضى بينكما ، ثم أتى بالسيف فقتل بشرا وقال هذا حكمي على من لم يرضى بقضاء رسول الله ﷺ فجاء جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أن الله يخبرك أن عمر صار فاروقا لأنه فرق بين الحق والباطل.

وقوله تعالى : " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ " أتت بصيغة الأمر وهي تفيد الوجوب قال تعالى "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله" وقال "وما ينطق عن الهوى" فأولوا الأمر منا أولا وبالذات من هم أولى بنا من أنفسنا وهو رسول الله ﷺ ثم الخلفاء الراشدون ، ثم الناهجون منهمهم ثم الولاية ثم العلماء العاملون ثم العلماء الذين جملهم الله بالشرعية والحقيقة جمالا باطنا وظاهرا.

"فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ" فأن تنازع الولاية والمؤمنون في أمر خفى عليهم الحكم فيه ولم يستتب لهم الهدى فيه "فردوه إلى الله" أي إلى القرآن "والرسول" أي السنة ، وهذا ما عليه العلماء أن الأمر يبحث عنه في القرآن ، فأن ظهر حكمه صريحا فيها وإلا نرجع إلى السنة ، فإن ظهر الحكم فيها صريحا فيها وإلا رجعنا إلى علم السلف الصالح ، فإن ظهر الحكم فيها فيها وإلا اجتهدنا بقدر استطاعتنا وللمخطئ أجر وللمصيب أجران.

"إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" أن أداة شرط ، وكنتم تؤمنون الخ فعل الشرط وجوابه تقدم وهي الآيات من أول قوله "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ" الخ ، ويكون نظم الآية أن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فالله أمركم الخ "ذَلِكَ خَيْرٌ" الإشارة عائدة إلى مدلول الآيات السابقة ، والخير هو الفوز بما يحبه أهل الإيمان الكامل ، وقد يكون المحبوب لهم هو الله ، وقد يكون الرضوان الأكبر ، وقد

(1) سورة الأنفال : 16.

يكون مقعد صدق ، وقد يكون الفردوس الأعلى ، وقد تكون المغفرة والجنة بحسب مشاهدهم ومواهبهم "وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" أى أحسن مآلا وعاقبة.

قوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا"(60).

"أَلَمْ تَرَ" ألم تعلم علما يقينيا مساويا لرؤية العينين "إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ" يدعون "أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ" أى صدقوا بالقرآن والتوراة والإنجيل كما بينت لهم يا محمد – "يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ" أى يحبون أن يحكموا الطاغوت وهو كعب بن الأشرف.

وسبب نزول هذه الآية بشر المنافق الذى بينت لك خبره فى الآية السابقة والطاغوت هو الطاغية وهو كعب بن الاشرف الذى كان أشد اليهود على رسول الله وقد شرحت لك نبذا من أعماله السيئة مع رسول الله "وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ" أى أن أمر الله تعالى يقتضى الوجوب أن يكفروا به.

"وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا" أى ويسعى الشيطان بحسب حقيقته الإبلسية أن يضلهم أى يهلكهم هلاكا بعيدا أى مبعدا ، وفى هذه الآية الحكم عليهم بالكفر ، والتشنيع عليهم بمخالفة رسول الله ، وإظهار خفيات نفوسهم لرسول الله وأصحابه.

قوله تعالى : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا"(61).

الجملة متعلقة بالآية قبلها ألم تر إلى الذين يزعمون الخ وإذا قيل لهم الآية ، فوصفهم الله بالكذب فى زعمهم وبارادة التحاكم إلى الطاغوت مع أمرهم بالكفر به ، ووصفهم أيضا ببارادة الشيطان اضلالهم بما يوسوس به إليهم، ووصفهم بأنهم إذا قيل لهم تعالوا "إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ" أى إلى القرآن وإلى رسوله محمد ، أو إلى القائم مقامه "رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ" والرؤيا والعلم واليقين سواء "يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا" أى يبعدون عن أن يتحاكموا إليك ، وقد خاصم حاطب بن أبى بلتعة القيس الزبير بن العوام إلى رسول الله فى شارج كانا يسقيان فى ضرعها ، فقال حاطب أن الزبير ظلمنى ، فقال رسول الله يا زبير اسق أرضك واحبس الماء حتى يحبس إلى الجدران ثم اسق أرضه ، وغضب رسول الله ، فعجب الصحابة وقالوا رجل يدعى الإسلام ويقضى رسول الله قضاء ولا يقبله أنه لمنافق ، فقال ثابت بن قيس بن شماس لو أمرنى رسول الله بقتل نفسى لقتلتها ، وقال رجل يهودى أنا احصانا حصيلة فى زمان موسى فأمرنا ربنا بقتل أنفسنا فقتلنا منا سبعين ألف رجل ولم يخالف أمر الله تعالى .

ومن وجد فى نفسه غضاضة من حكم رسول الله تساهلا بالأحكام فهو منافق ، ومن وقع شئ من معاصى الله ومعاصى رسوله معترفا أنها مخالفة فهو مؤمن تجب عليه التوبة ، ولن تخرجه المعاصي عن الإيمان وإنما حكمنا على من خالف رسول الله مبغضا للحكم بالنفاق ، لأن الله يقول "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"⁽¹⁾.

(1) سورة النساء : 65.

قوله تعالى : "فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا" (62).

الفاء هنا للفصيحة ، وكيف استفهام تعجبي : ، وأصابتهن مصيبة والمصيبة هي قتل عمر بشر اليهودي بما قدمت أيديهم أي بعدم قبول حكم رسول الله.

"تُمْ جَاءُوكَ" أي أتوا إليك بعد وقوع المصيبة "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا" أي يحلفون بالله كذبا "وَأَنْ" هنا نافية بمعنى ما أردنا بشكوأنا إلى كعب بن الأشرف لعنه الله أو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه "إِلَّا إِحْسَانًا" أي سعيا فى الإصلاح والصلح وتوفيقا بين المتخاصمين.

قوله تعالى : "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا" (63).

الإشارة هنا إلى بشر وقومه ، "يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ" من النفاق والكفر.

"فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" أي لا تقبل منهم كلاما فى طلب الدية من عمر بن الخطاب فإنه فاروق الأمة يفرق بين الحق والباطل.

"وَعِظْهُمْ" الموعظة بيان ما فى النفس من الخبث لأهل النفوس الخبيثة ، والنصيحة بيانا للخير الذى يناله الإنسان وقبوله.

"وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا" جائز أن يكون القول خاصا بما علق بنفوسهم من الشبه والأمراض الخبيثة ، وجائز أن يكون فى أنفسهم أى فى خلوة حيث لا يكون أحد معهم.

"بَلِيغًا" لقول أى قولا مؤثرا يصل إلى قلوبهم.

قوله تعالى : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا" (64).

الجملة هنا أفادت القصر ، والمعنى أن الله هو الذى يرسل الرسل بإذنه ، : وأنه إنما يرسلها لحكمة واحدة ، وهى أن يطاعوا من أممهم ، وليس هذا قدرا نافذا كأننا إنما هى إرادة محبوبة لله ، ممن سبقت له محبة الله من الأزل ممن شرح الله صدره فاتبع الرسل ، وعمل بوصاياهم ، ولو كان هذا الحصر عن إرادة كائنة لكان الأناسي على وجه الأرض كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولكن الله أراد أن يظهر أسمائه وصفاته – جمالها وجلالها – فهو العطوف الغفور الرءوف التواب . الكريم المنان المنعم المتفضل ، : وهو المنتقم شديد البطش شديد العقاب ، فظهر سبحانه بكل معانى صفاته فى مكوناته.

قوله "بِإِذْنِ اللَّهِ" أى بأمره المحبوب له ، الذى جعله الله رحمة للعالمين ، فإن الأمر والنهى ميزان السعادة والشقاوة ، فمن وفقهم الله للقيام بأمره بقدر الطاقة – وللانتهاى عما نهى عنه مرة واحدة ، حكمنا أنهم من السعداء الذين أخبرنا الله عنهم بقوله "وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا" (1) الخ ، ومن خالف وصايا الله ورسوله ووقع فى نواحيه عامدا ، حكمنا أنه سبقت لهم السوءى والشقاوة "فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ" (2) . وقوله تعالى "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ" إذ هنا للماضي من الزمان ، وظموا أنفسهم

(1) سورة هود آية : 108.

(2) سورة هود : 106.

بالتقاضي عند كعب بن الاشرف وبعد قبول حكم رسول الله ﷺ ، كما فعل حاطب بن أبى بالتعة القيسى ، وكما فعل بشر الذى خاصم اليهودي عند كعب ولم يقبل حكم رسول الله ﷺ ورفع قضيته إلى عمر فقتله ، ولو أنهم ندموا على خطاياهم فسارعوا إلى المجئ إليك مستغفرين الله من ظلمهم ، فاستغفر لهم الرسول ﷺ ولم يقل فاستغفرت لهم رفعا لمكانته ﷺ ، أن يكون مخاطبا مع هؤلاء فإن قوله واستغفر لهم الرسول فيه تعظيم لرسول الله ﷺ وعلو لمكانته ، : فإن استغفار الرسول مقبول عند الله تعالى ، وفيه من الشرف والمجد بخلاف ما لو قال واستغفرت لهم.

"لَوْجِدُوا اللَّهَ" اللام هنا موطن للقسمة ، كأنه يقول والله لوجدوا ، وفى قوله "لوجدوا" إشارة إلى وجوده جل جلاله حاضرا معهم يغفر ويرحم ويسمع ويقبل ، كل ذلك لأمرين:

الأول – انكسار من خوف الذنب ، والثاني – انشراح الصدر بقبول التوبة منه سبحانه وتبديل السيئات حسنات.

وجائز أن يكون لوجدوا من الوجدان ، أى فجعل الله لهم فى قلوبهم نورا تطمئن به فرحا بقبول التوبة من الله ، أى لوجدوا الله من الوجد – لا من الوجود – الذى يهبه لهم من فضله.

"تَوَابًا رَحِيمًا" والتوبة فى اللغة هى الرجوع ، فتوبة العبد الرجوع من المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى الذكرى ، ومن الوجود الباطل إلى الوجود الحق ، ومن علم اليقين إلى عين اليقين : ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، فالعبد المؤمن لا يترك التوبة نفسا ولا يكبر على التوبة مخلوق ، ولو كان رسولا عظيما ، : ولا يصغر عن الولاية مسلم ولو كان عاصيا ، : فإن الولاية فرع الإيمان والإيمان هو الأصل ، فإذا كان الله يعطينا الأصل فهو قادر على أن يعطينا الفرع ، ومن أعطى الإيمان أعطى الولاية ، فإذا رأيت مسلما عاصيا ورأيت وليا ظاهرا لا تعجب ، فإن الذى تفضل عليه بالإيمان قادر على أن يتفضل عليه بالولاية ولا حرج ، وإذا رأى مظاهر الولاية فى من يتكبر عن التوبة فهو فاسق أتبع خطوات الشيطان الرجيم.

والواجب علينا أن نتوب فى كل أنفاسنا لأننا لا نقدر أن ننقى الله حق تقاته.

ففى كل نفس يجب علينا الشكر على الشمس والقمر ، والنباتات والأشجار والأنهار ، فنحن فى كل أنفاسنا عاجزون عن تقوى الله ن فعلينا أن نتوب فى كل نفس ، والتوبة من الله الرجوع على العبد بالعفو والفضل والإحسان والمغفرة والقبول ، فالله جل جلاله تواب ، أى سريع الرجوع على عبده بوسع فضله وجزيل إحسانه فيبدل السيئات إلى حسنات.

والرحمة ، هى إرادة الله الخير لعبده فى الدنيا ، فالعافية والصحة والقوت والملابس والمأوى والزوجة والأولاد رحمة من رحمت الله تعالى.

والمحبة هى إرادة الله الإحسان للعبد فى الآخرة ، فمن رحمه الله أطال عمره ، ووسع له رزقه ووفقه لما يحبه ، ومن أحبه سبحانه أنسه يوم القيامة بشهود جماله العلى . وفى هذه الآية تشنيع شديد على كل من استعان بعدو من أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ ، كما فعل بشر المنافق وحاطب بن أبى بلتعة القيسى.

قوله تعالى : "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"(65).

أى وربك ، والواو هنا للقسمة ، ولا ، زائدة لإفادة التأكيد ، ونفى الله الإجابة عنهم ولو أنهم أقروا بالسننهم وصاموا وصلوا حتى يحكموه بينهم ، وشجر فعل ماضى يقال شجر الشجر ، وسمى شجر لتداخل فروعه فى بعضها ، والشجار هو الخلاف المؤدى إلى الخصومة.

"ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ" أي بعد أن يرفعوا خصومتهم إليه "لا يجدوا" أي لا يخرط على أنفسهم خاطر ريبة ولا شك أن ما يقضى به هو العدل والحق "وحرجا" أي ضيقا من الذي قضيت به عليهم "ويسلموا" أي يستسلموا رضا بقضائك "تسلينا" مؤكدا.

وفى هذه الآية نهاية التخويف لأهل الإيمان ، ليقظة قلوبهم ودوام مراقبة رعاية أحوالهم فى أقوالهم وأحوالهم تجعل كل ما صدر منهم قلبا وقالبا مطابق لأوامره خصوصا فى أوقات الحرج.

وفى الآية إشارة أخرى إلى أن ما شجر من النفس والعقل يجب أن يرجع الإنسان فيه إلى سنة رسول الله ، فلو دعت نفسه إلى عمل خاطئة أو فعل معصية أو فعل شر أو الوقوع فى مخالفة يجب أن يحكم سنة رسول الله فيما شجر من نفسه وعقله ، أو من همته أو إرادته واختياره ، أو بين الجوارح والقلب ، حتى إذا ظهر له حكم الشريعة فى أمر من الأمور وجب عليه أن يسلم لله ولرسوله تسليما ، وأرجى آية فى كتاب الله تعالى لأهل الإيمان "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"⁽¹⁾ فمن وقع فى شئ من السيئات التى ليست من الكبائر المعلومة ، فعليه أن يسارع إلى التوبة والندم ، وأرجى آية فى القرآن لأهل الإحسان هى "وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى"⁽²⁾ ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله "والله لا يكمل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين" . وقال لعمر فى مشهد أعلى من هذا ، حيث قال له عمر فداك أبى وأمى يا رسول الله ، فقال : "لا يكمل إيمان أحدكم يا عمر حتى أكون أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه" فقال "الآن يا رسول الله أنت أحب إلى من نفسى" ، وإنما ميزان الرجال عند الله ورسوله بقدر كمال الإيمان ، ومشاهد المؤمنين وميزان الأخيار بقدر الحب فى الله ومن الله.

قوله تعالى : "وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا"⁽⁶⁶⁾.

هذه الآية خير من الله تعالى تفيد رحمة الله بنا ، وشفقته علينا ، وإحسانه إلينا حيث لم يأمرنا الله بما أمر الأمم قبلنا ، كبنى إسرائيل الذين أمرهم الله بالخروج من أرض مصر فخرجوا وبقتل أنفسهم فقتلوا ، وكذلك بعناية الله وتوفيقه وحسن بلائه ، ولكنه سبحانه وتعالى أرسل لنا حبيبه محمدا رحمة للعالمين ، وحبا فيه عليه الصلاة والسلام ولطفا به لم يبتلينا بما ابتلى به من قبلنا من الأمم ، وأرسله رءوفا رحيفا بالمؤمنين ، فلعل تلك العطايا التى تفضل بها علينا فلم يمتحننا كما امتحن من قبلنا فيقول سبحانه لو أنى أمرتكم بقتل أنفسكم أو بالخروج من دياركم ما فعلتموه إلا قليلا منكم ، لما علم الله فيكم من الضعف ، ولسابق إرادته تعالى أن يجعلكم من آل اللطف منه والرحمة والعطف ، والواجب علينا بعد هذا البيان أن نديم الشكر له ، وأن نسأله أن يعيننا على شكره وذكره وحسن عبادته أنه مجيب الدعاء ، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد نحن ، اللهم كما أنك نعم الرب لنا اجعلنا لك نعم العبيد.

وأن فى قوله "أَنْ اقْتُلُوا" بمعنى أن "ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكن خيرا لهم" أى ولو أنهم فعلوا ما وعظهم الله به وبينه لهم من محابه ومراضية لكان فعلهم هذا خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، ولو أن ما وعظهم الله به لا يلائم طباعهم فإن المشاهدة لا تكون إلا من بعد المجاهدة ،

(1) سورة النساء : 48.

(2) سورة الضحى: 5.

قال تعالى "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا"⁽¹⁾ . والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، ومن لم يجاهد نفسه كيف يشاهد ربه ، بل كيف يهتدي إلى صراط الله المستقيم .
"وَأَشَدُّ تَثْبِيثًا" أى أقوى تثبيتا لإيمانهم عند الله ، حتى يكون إيمان العبد أثقل فى الميزان عند الله من جبال الأرض .

قوله تعالى : "وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا"(67) .

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقول "وإذا" أى إذا جاءوك يا محمد فاستغفروا واستغفرت لهم لوجدوا الله توابا رحيمًا ولآتيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا ، والأجر من لدن الله تعالى ليس جزاء على عمل عملوه ، ولكنه فضل فوق فضل ، والفضل الأول مغفرة الذنوب ، والفضل الثانى هو الأجر العظيم ، والأجر العظيم لأهل التوبة والاستغفار هو أن يمن الله عليهم بالرضوان الأكبر مع ما ارتكبوه من الخطايا التى بينها الله تعالى فى الآيات السابقة ، مما وقع من بشر المنافق ، ومن حاطب بن أبى بلتعة ، ومن أمثالهما من عصر رسول الله إلى يوم القيامة ، واللذنية فوق المعية وفوق العندية ، وقد يكون الأجر العظيم من اللذنية أن يحسن الله إليهم بمحبته الخاصة التى بها رفع الدرجات لديه .

قوله تعالى : "وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا"(68) .

"وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا" اللام هنا لام القسم ، والهداية بيان الحق أى بينا لهم بتوفيقنا وعنايتنا صراطا مستقيما ، أى طريقا موصلا إلى الله تعالى غير معوج ، والصراط المستقيم هو الخط المستقيم بين نقطتين بداية ونهاية ، والطريق المعوج هو أبعد طريق موصل للغاية ، : وقد أمرنا الله أن نسأله الهداية أن يهدينا صراطه المستقيم فى اليوم بضعا وثلاثين مرة ، عدد ركعات الصلاة المفروضة والمسنونة يوميا عند قولنا "أهدنا الصراط المستقيم" والصراط هو الطريق والمنهج والشرية ، بمعنى واحدة وهو الطريق الواسع المستقيم القريب بل والسنة أيضا .

قوله تعالى : "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا"(69) .

سبب نزول هذه الآية أن ثوبان مولى رسول الله أتاه عليه الصلاة والسلام منكسر القلب ضعيفا كالسقيم ، فقال له رسول الله ما بالك يا ثوبان ، فقال ما بى من وجع يا رسول الله ولا مرض ، ولكن كلما اشتقت إليك فى تلك الدار الدنيا حضرت فتمتعت بالنظر إلى وجهك ، ولكن إذا مت وبعثك الله المقام المحمود وكنت فيما يليق بك واشتقت إليك أن لا أراك وبكى فأنزل الله تعالى "فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين" الآية بشري لثوبان المملوك لأنه ملكه حب رسول الله وصار لا يستطيع الصبر عنه ، وورد أن كثيرا من أهل المحبة من المهاجرين والأنصار كانوا إذا تذكروا يوم القيامة وأن رسول الله يكون بالرفيق الأعلى ، وقوى الشوق إليه ولم يتمكنوا من شهود وجهه ، يبيكون حتى يكاد الرجل منهم أن يحترق إذا تذكر ذلك ، فأنزل الله هذه الآية طمأنينة لقلوبهم ، وهذا السبب الخاص لا يمنع من عموم الحكم من أن كل مسلم أطاع الله ورسوله جعله الله تعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية ، وهذا الخبر من الله تعالى وكونه مع النبيين والصديقين لا يقتضى مساواته بهم ، فأن المعية تقتضى الاتباع لهم عليهم الصلاة والسلام .

(1) سورة العنكبوت : 69 .

وتفسير الآية "وأولئك" أى الذين أطاعوا الله ورسوله ، والمعية هى الفوز بالصحبة فى المكان ، والذين أنعم الله عليهم هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله وهم أنبياء الله ، والصديقون هم الذين صدقت قلوبهم أقوالهم وأعمالهم ، فكانت قلوبهم أجمل عند الله من أقوالهم وأعمالهم أمام الناس وهو كثيرو الصدق ، وفى الأثر لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا.

والصديقون هم الذين أنطوت النبوة بين جنبيهم إلا أنه لا يوحى إليهم ، والشهداء هم الذين استشهدوا فى سبيل الله والذين أشهدهم جماله فى الدنيا ، والصالحون الذين أصلح الله قلوبهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم.

"وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" قد يكون حسن فعل تعجب "وأولئك" إشارة عائدة إلى من رفعهم الله تعالى إلى تلك المقامات "رفيقا" أى مرافقا لأنه فى رفقة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين. قوله تعالى : [ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا] (70)

الإشارة عائدة إلى البشائر التى بشر الله بها من أطاع الله وأطاع رسوله ع والفضل من الله تقدم عليه الكلام فيما سبق.

وهنا أزيدك بيانا أن العطايا التى يهبها الله لمن يحبهم من معيته سبحانه أو معية الأنبياء والمرسلين فضل منسوب إلى الله بالذات ، بخلاف ما تفضل الله به فى تلك الدار الدنيا من العاقبة والأموال والأولاد ونفوذ الكلمة فإنه فضل ربنا كما قال سليمان عليه السلام "هذا من فضل ربي" عندما نظر إلى ما تفضل الله به عليه من الملك الذى لا ينبغي لأحد من بعده وعرف الفضل بال الاستغراقية ، أى ذلك الفضل الذى استغرق كل الكمالات والعطايا فى الدار الآخرة من الله سبحانه وتعالى [وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا] أى محيطا بأحوال هؤلاء القوم وما كانوا عيه من المحبة فى الله والمسارعة إلى طاعته وإطاعة رسول الله ع.

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا] (71) [وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا] (72).

يقول الله تعالى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله احترسوا بحمل أسلحتكم أن يباغتكم عدو ، فانفروا ثبات أى أخرجوا لجهاد عدوكم فرق وعصبا ، أو انفروا جميعا أى أخرجوا لرد عدوكم وقهره مجتمعين ، وأن منكم لمن يبطئن وأن بعضكم ليثبطن الصحابة عن الجهاد ، وقد فعل ذلك المنافقون ، والمبطئ وغيره مخالف لله تعالى ورسوله ع متأخر عن الجهاد، فيبطئ هو ويبطئ غيره ، وهذه صفة أهل النفاق.

[فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ] من جروح أو قتل أو غير ذلك [قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا] لأنه لم يخرج مع الصحابة رضى الله عنهم ولم يكن حاضرا يشهد معهم الجهاد ، وهذا من أقبح أنواع الكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : [وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا] (73).

[لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا] أى فيقول حسرة وندمًا متمنيا صحبتهم . يا ليتني أى أتمنى لو كنت معهم ، أى فى صحبتهم فى الجهاد فأفوز بالخط والغنيمة والشهرة فوزا عظيما فى نظر أهل الجاهالة والطمع ، والصحابة ما خرجوا للغنيمة

ولكنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ لإعلاء كلمة الله ونشر سنة حبيبهِ عليه الصلاة والسلام ، ولكن أهل الطمع لكفرهم بالله يعتقدون أن الصحابة ما خرجوا إلا لطمع في الدنيا وحرص على حطامها الزائل ، فهم في تأخرهم كافرون وفي تمنيمهم الصحبة كافرون بالله أيضا وفي كان لم تكن بينكم وبينه مودة بيان أن هذا الرجل يعمل أعمال الغرباء البعداء الذين لم تسبق بينهم صحبته ، ولم يظهروا إيمانهم ولم يحضروا الصلاة ، ولم يبلغهم سفر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الجهاد.

قوله تعالى : **[فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا]** (74).

بعد أن شنع الله تعالى على المنافقين الذين لم يخرجوا للجهاد في سبيله أمر أهل الإيمان بالله بالقتال حاثا لهم على يقدموا لله **[فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ]** ومعنى يشرون هنا أى يبيعون الحياة الدنيا ، ببذل النفس والمال والوطن والأهل والولد ببيعاً لله تعالى ليفوزوا بالحياة الآخرة ، وهذا الخطاب لابد وأن يكون لأهل الإيمان.

وجائز أن يكون اشترى بمعناها الحقيقي ، أى اشترى الدنيا وباعوا الآخرة ، وهذا الخطاب لابد أن يكون للمنافقين الذين تأخروا عن الجهاد كما قدمت لك ، ويكون هنا محذوف تقديره **[فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ]** ، آمنوا بعد نفاقهم بتأخرهم عن الجهاد فى غزوة أحد وبعد شرائهم الدنيا وبيعهم الآخرة.

وسبيل الله هو طريقه وشريعته ومنهاجه ، وهو ما شرعه الله لنا على لسان حبيبهِ ﷺ ، وتكون الآية على ظاهرها ، وهذا الفهم قريب بعد تقدير المحذوف ، وبدون تقدير المحذوف تكون الآية كما قررت لك أولاً **[وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ]** يبين الله تعالى فضل الجهاد في سبيل الله لأهل الإيمان بقوله : **[وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]** والمجتمع الذى يقاتل فى سبيل الله فيستشهد فى إعلاء كلمة الله تعالى أو يغلب أعداء الله بما تفضل الله به عليه من الإخلاص والشجاعة والأقدام على نشر السنة.

[فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] الفاء رابطة لجواب الشرط وسوف تفيد أن الإيتاء يوم القيامة لمن أستشهد ، وفى الدنيا والآخرة لمن قهر الأعداء ، وفى يوم القيامة لن أستشهد ، وفى الدنيا والآخرة لمن أطال الله أعمارهم منهم "ونؤتيه" أى نعطيه "أجرا" أى جزاء على حسن بلائه فى سبيل الله و "عظيما" فوق الفردوس فإن عظيما من الله فوق نعيم الآخرة ، والذى يظهر لأهل المعرفة أنه الفوز بالرضوان الأكبر ونيل مشاهدة جمال الله العلى على منابر من نور قدام عرشه سبحانه.

قوله تعالى : **[وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا]** (75).

ينكر الله تعالى عليهم تمهلهم فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان ، أو فى سبيل الله والمستضعفين معطوف على الله بمعنى وفى المستضعفين **[مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ]** تفصيلا للمجمل فى قوله المستضعفين ، والولدان جائز أن يكون للصبيبة والصبيات ، وجائز أن يكون للأرقاء لأن المملوك يقال له وليد والمملوكة وليدة ، والنساء أى الحرائر وهم المؤمنين والمؤمنات الذين عجزوا عن الهجرة للمدينة المنورة لفقر ، أو مرض ، أو

شيخوخة ، أو صغر سن بدليل قوله: [الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ] ثم وصفهم الله بوصف يثير العواطف ويقوى العزائم فقال سبحانه : [الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا] أى يسألون ربهم أن يخرجهم من مكة التى ظلم أهلها أنفسهم بالشرك بالله وظلموا المسلمين المستضعفين فيها ، والمراد بإخراجهم منها وصولهم إلى المدينة المنورة ويقولون أيضا.

[وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا] يتولى أمورنا فيدفع عنا شر المشركين وقهرهم لنرجع إلى دينهم ونفارق الإسلام ، وكان أهل مكة يؤذون المؤمنين أذية فادحة ليردوهم عن الإسلام ، واجعل لنا من لدنك وليا – أى كن أنت وليا لنا فاعصمنا من المشركين.

[وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا] أى ناصرا ينصرنا على أعدائنا بما تعطيه من القوة ، فاستجاب الله دعاءهم وفتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وأقام فيها عتاب بين أسيد وإليا ، فأعز الله المستضعفين وأظهرهم فكان رسول الله ﷺ وليا لهم وعتاب بن أسيد ناصرا لهم ، وكان المستضعفون يشركون أولادهم الصغار فى الدعاء ليستجيب الله لهم لأن الأولاد أبرار ، ولأن السنة فى الاستسقاء أن نصلى صلاة ونسأل الله ومعنا الأطفال ، وهكذا يكون أهل الإيمان بالله الذين عذبوا فادح العذاب ليرتدوا عن الإسلام وصبروا حتى نصرهم الله وأعزهم ومكن لهم فى الأرض بالحق ، أسأل الله أن يعيد لنا هذا المجد يقينا وهمة وإقبالا على الله وعزيمة ، فنعيد المجد الذى كان لسلفنا الصالح بعناية الله وحسن توفيقه.

والبلد الظالم أهلها هى مكة كما قررت لك ، منزل اسم الفاعل فى قوله الظالم منزلة الصفة المشبهة ، فرد عن نية تذكيرا فاعله الذى هو أهل فلم يقل الظالمة لهذا.

قوله تعالى : [الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا] (76).

هذه الآية خبر من الله تعالى ، يقيم بها الحجة لأهل الإيمان الذين يجدون الإخلاص والصدق فى جهاد عدو الله . وتطمئن قلوبهم على إيمانهم ، ومعناها الذين صدقوا الله تعالى ورسوله ﷺ يقاتلون فى طريق الله ومنهجه وشرعه الذى شرعه ، ، فيفوزوا بالحسنى وهى النصرة العاجلة والغنيمة فى الدنيا ، وبالأجلة لصدقهم وإخلاصهم بعد الموت ، أو يفوزون بالحسنى الآجلة وهى الشهادة فى سبيل الله التى وعد الله بها الشهداء فى سبيله فهم مؤهلون للحسنين فإن فاتتهم العاجلة لم تفتهم الآجلة.

وهذه الآية حث للمؤمن على الجهاد فى سبيل الله ، والجهاد هو الحجة البالغة للمسلمين أنه كامل الإيمان ، فإن الجهاد بذل النفس والمال فى سبيل الله قال تعالى [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ] ⁽¹⁾ ثم فصل هذا المجمل بقوله يقاتلون فى سبيل الله الآية ، وبرهان صحة البيع بذل النفس والمال فى الجهاد.

والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فى فى سبيل الشيطان فى منهجه وطريقه وشرعه [فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ] أى أنصاره ومؤيديه من اليهود والنصارى والمشركين [إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا] أى أن إغواءه لأنصاره ومكره بهم وإضلاله لهم وإعانتهم على محاربة أنبياء الله وأوليائه كان ضعيفا لا قوة له ، لأن أولياء الشيطان يقاتلون للغنيمة والشهرة والفوز بالعاجلة ،

(1) سورة التوبة : 111.

وهذا بالنسبة لما يقاتل لأجله المؤمنون ضعيف جدا ، لأن المؤمن يقاتل وهو يحب أن يستشهد ليفوز بما وعده الله به من الجنة ، وأنصار الشيطان يقاتلون للطمع والحرص فإذا لم ينالوا ما يقاتلون لأجله انهزموا شر هزيمة ، بل ولو قدر الله تعالى ونالوا ما قاتلوا لأجله آل أمرهم إلى جهنم . وأى ضعف أشد من هذا .

قوله تعالى : [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا](77).

نزلت هذه الآية في بعض أصحاب رسول الله ﷺ عندما اشتدت فتنة المشركين بهم وهم في مكة ، وقالوا يا رسول الله كنا نغزو الناس قبل الإسلام وبعد إسلامنا حصل لنا الذل فأمرنا فقطع رقاب المشركين بالمعاول ، فأنزل الله لهم هذه الآية ، وقال لهم رسول الله ﷺ "أمر بالعفو" وكان ذلك من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وأصحابه ، فلما هاجروا إلى المدينة وأنزل الله الأمر بالجهاد ، قالوا ما أخبرنا الله عنه ، ومعنى الآية ألم تر يا محمد - بقلبك كما قدمنا - إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ألا لا تقاتلوا المشركين ، وهذا أمر من الله للقوم "وأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقط" ، فكانوا يتشوقون إلى أن يأمرهم الله بالجهاد ولكن الحكيم العليم أعلم بحال عباده منهم بأنفسهم.

[فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ] أى فلما أذن الله لهم فى قتال المشركين ن إذا فريق منهم أى جماعة منهم يخافون الموت ، لأن أمر الله لهم بالقتال عظيم لديهم وهم حريصون على تنفيذه والموت عظيم لديهم ، فأرادوا أن يلتمسوا من رسول الله ﷺ أن يرجئ الجهاد ، وهذا معنى كخشية الله أو أشد خشية لأنهم التمسوا هذا الملتمس مع حرصهم عليه وتمنيهم أن يجابوا فيما طلبوا .

[وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ] يستفهمون عن الحكمة التى كتب الله بها عليهم القتال ويرجون من الله تأخيرهم ، فيقولون لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، إلى الموت على فراشنا .

"قل" يا محمد [مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ] أى ما تتمتعون به فى الدنيا من عافية ويسار ونيل مشتهيات قليل جدا بالنسبة لما يفوز به المجاهد فى سبيل الله ، فإن المجاهد إذا أستشهد فاز بنعيم الجنة المقيم وأن أرجعه الله سالما منصورا فاز بالحسنين فى الدنيا والآخرة "والآخرة" أى اليوم الآخر سماها سبحانه آخره ، لأن الدنيا أولى وما بعدها آخره متأخرة "خير لمن أتقى" أى فوز بما يحببه العبد لنفسه ويرضاه من نعيم ومسرة وحبور دائم فى جوار الأخيار من النبيين والصديقين والشهداء ، "لمن أتقى" أى خاف مقام ربه فراقبه فى جميع أعماله قلبيه كانت أو جسمية ، "ولا تظلمون فتيلًا" أى لا يظلمكم الله فتيلًا والفتيل تقدم لك أنه ما يوجد فى شق النواة ، أو ما يوجد بين الأظفار وأصابع الرجلين مما يفتل ، وهذا دليل على أن الظلم مستحيل على الله كما بينت لك فيما سبق ، وقيل أن هذه الآيات التى نزلت فى الجهاد كلها نزلت فى اليهود من قبل النبي ﷺ ليقظة قلوب المؤمنين حتى لا يقتدوا بأعداء الله تعالى .

وجائز أن تكون وقعت من اليهود ومن بعض الصحابة أيضا والله أعلم بالحقيقة .

قوله تعالى : [أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا] (78). [مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا] (79).

يحث الله المؤمنين على الجهاد ، وينشطهم على المسارعة إليه بإعلامه سبحانه إياهم أن الموت حق لا مناص ، وأنه سبحانه إذا قدر على العبد الموت أماته ولو كان على فراش الوطئ وحوله العساكر والدساكر في البروج الواسعة المشيدة المنيعة الرفيعة التي تمنع الهواء أن يدخل إليها ، وحيث أن الموت حق فموت الرجل في الجهاد خير من موته على فراشه ، لأنه يموت على فراشه يحاسب على النقيير والقطمير ، وبموته في الجهاد يغفر الله ذنوبه ويدخله الجنة ، فالشهيد ضامن للجنة والذي يموت على فراشه موكول إلى أمر الله إنشاء عذبه وإن شاء نعمه .

وأى إنسان مؤمن له عقل لا يسارع إلى الفوز بالسعادة الدائمة في جوار الأخيار من أحباب الله ، ويضحى في سبيلها بكل مرتخص و غال ، وما هي تلك الحياة التي كلها نكد ونغص لا يأكل اللقمة إلا بعناء ولا يخرجها من جوفه إلا بألم ، فإذا استراح من جهة عافيته اعتواره نكد الرزق ، وإذا استراح من الرزق حلت به البلايا من الفتن في الجار والأصحاب والإخوان والمسلمين جميعا ، فلا ينفك المسلم في تلك الدار يعاني متاعبها وصعوبتها حتى يدخل الجنة آمنا ، ولديها تحصل له المسرة والحبور ويستريح قلبه وجسمه ، ومن استراح قبل الجنة فهو جاهل لأنها راحة تزول ، والاستشهاد في سبيل الله هو السعادة الكبرى ، رزقنا الله الشهادة في سبيله وأعاد للمسلمين مجدهم الأول أيام كان كل مسلم لا يفارق سيفه ولا ظهر جواده!.

والجهاد نوعان : -

1- مجاهدة العدو الخارج.

2- ومجاهدة العدو الداخل هو الجهاد الأكبر ، وهو أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله ،

فجهاد النفس في سبيل الله خير من أن يقتل المسلم بين الصفين ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" جهاد النفس .

[وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ] . هذه

الآية الشريفة من معضلات آيات القرآن ، ومن لم يلهمه الله تعالى فقهها زلت به القدم ، وأنى مبين لك ما علمته فيها وأحب منك التسليم ، كان المشركون والمنافقون إذا نالوا خيرا من نصرة أو غنيمة أو سلامة قالوا هذه من عند الله ، وأن أصابهم بلاء من جراح أو أمراض أو هزيمة قالوا هذا

منك يا محمد نظرا منهم إليه بعين البغضاء فكذبهم الله تعالى ، وأثبت التوحيد الخالص بقوله تعالى قال يا محمد "كل من عند الله" أى أن العافية وتوالى الخيرات والنصر والتأييد والهداية والتوفيق من عند الله تعالى ، كما أن البلاء والشدة والمصائب هي كذلك من عند الله ، إذ هو الضار النافع والمعطى المانع والمحى المميت والمعز المذل لا شريك له ، ثم شنع على المنافقين الذين يجعلون الخير من الله والشر من رسوله ، ظنا منهم أن ذلك حصل بسوء تدبيره أو خطئه أعاذنا الله من الكفر بعد الإيمان ، ومن سلب العطاء وحرمان الرضا وكفران النعمة ، وفي هذا التشنيع برهان على سوء طبعهم وخبث نفوسهم.

قوله تعالى : [فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا] وهنا محذوف تجب رعايته وملاحظته وهى كلمة "يقولوا" كان سائلا سائل الله تعالى أن يذم هؤلاء ويشنع عليهم ، فأجابه سبحانه بقوله أنهم يقولون ما تقدم من مقولهم الأول وهو "ما أصابك من حسنة فمن الله" الآية وبهذا التقدير تطمئن القلوب إلى فقه آيات القرآن ولا يكون هناك حيرة ولا تردد فى فهمه ، فإنه سبحانه بعد قوله : "قل كل من عند الله" لا يرجع فيقول " ما أصابك من حسنة فمن الله" الآية قد قال العلماء فى تأويل هذه الآية بأنه ليس هنا محذوف الآية الثانية وهى قوله تعالى "ما أصابك من حسنة فمن الله" الآية محكمة ، فقالوا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وهى بتقدير الله ولكل من الله ، ولكن الله جعل العبد سببا فى الوقوع فى السيئات التى قدرها سبحانه ، وعلى هذا الوقوع يكون الحساب والعقاب .

والذى أستحسنه ما بينته لك أولا ، لأنه لا يحتاج إلى تكلف فى التأويل ، وأن كان فى تأويل الآية ما يقتضى الأدب مع الله من أن ينسب العبد السيئة إلى نفسه والحسنة إلى الله ، كما قال صاحب موسى عليه السلام عند قوله [فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا] الآية . وقال [فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا] فنسب الخير لله والشر لنفسه ، وكما قالت الجن [وَأَنَا لَا نَذْرِي أَشْرًا أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ] الآية فلما ذكروا الشر نسبوا القول إلى نائب الفاعل ، ولما ذكروا الخير أسندوه إلي فاعله الحقيقي ، ولكن العلم يقتضى كشف الحقائق والبيان كل البيان ، والأدب شئ والعلم شئ آخر ، فإذا جلس العالم يكشف الحقائق جليلة يكشفها لمن زكت نفوسهم بالأدب .

[وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا] أى أنك جئتهم من عندى لتبلغهم رسالتى فقط ، ليس لك أن تهدى وتضل ، ولكن عليك هداية البيان وعلى أنا هداية الإحسان ، والواجب عليك البلاغ ، قال تعالى : [مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ] فأنت حجتنا لأهل الإيمان بك ، وحجتنا على أهل الجحود من المنافقين والكفار ، فلا يحزنك إنكارهم عليك ومحاربتهم لك ، فأنى أنا الذى قدرت كل ذلك حتى أكون حكما عدلا لا أظلم الناس شيئا ، وإنما هى أعمال الخلق تعود عليهم أن خيرا فخير وأن شرا فشر ، وهو الفاعل المختار جل جلاله .

[وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا] ، أى كفى به شاهدا ومحيطا علما بخرات قلوبهم وحركات جوارحهم لا يشرك سبحانه فى حكمه أحدا .

قوله تعالى : [مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا] (80) . هذه الآية الشريفة أصل من أصول الدين ، بل يجب على كل مسلم أن يفقه خبر الله تعالى من رسوله ﷺ ، وكيف لا وقد جعل الله طاعته عليه الصلاة والسلام هى طاعة الله تعالى ، المر الذى يوجب علينا أن نعتقده معصوما فى أقواله فى أحواله فى معاملته فى أعماله خصوصا عند بيان أحكام الله تعالى أو تفصيل المجل فى كتابه قال سبحانه : [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى] وأنت تعلم أن الله تعالى أثنى على من آمن بالغيب بقوله سبحانه : [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] الآية وقال عنهم [أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] وتعلم أيضا أن العلم الذى تقوم به الحجة وتتضح به المحجة ليس بالأمر الهين على كل إنسان حتى يؤمن بالغيب إيمانا جازما ، كإيمان من شهد بعيني قلبه الحقائق التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ وبعد أن يؤمن بالغيب بقلبه يسلم الرسول الله ﷺ فى أمره ونهيه ، تسليما يجعله يسارع إلى العمل بمحاب الله ومراضية ، فإذا جملة الله بتلك الخصلتين علمه علم ما لم يكن يعلم ، قال ﷺ "من عمل بما علم ورثه الله علم لم يعلم" .

أما أن أراد أن تقوم له الحجة ، وأن يحصل ما جاءنا به رسول الله ﷺ في علم اليقين ، فمن أين له أن يفوز به والله يقول : [الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ] ⁽¹⁾ ولا بد لكل إنسان أن يؤمن بالغيب ويسلم تسليما حتى يعلمه الله ما لم يكن يعلم ، وقد أمرنا سبحانه بعد أن أثنى على من يؤمنوا بالغيب فقال : [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ] ⁽²⁾ وقال [فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ] وقال : [هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] وقال : [الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ] فأمرنا جل جلاله بتحصيل العلم النافع من أهل العلم بالله وبأيام الله وبأحكام الله وبحكمة أحكام الله ، وأمرنا أن نؤمن بالغيب أولا ، وأن نسلم لرسول تسليما حقا حتى نؤهل أنفسنا لأن يزكيها الله ، وبذلك نكون أطعنا رسول الله بالأرواح وبالعقول وبالأشباح ، بعد أن أطعناه أطاعه تسليم واستسلام ، ولذلك سمانا المسلمين ، والمسلم والمستسلم بمعنى واحد ، وقد وردت رواية في القرآن في قوله : [وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ] بتشديد اللام [وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً] قال تعالى : [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] ⁽³⁾ إذن طاعة رسول الله ﷺ هي في الحقيقة طاعة الله ، لأن الله على عظيم مستحيل على أكمل كامل أو يرى ذاته ، ومستحيل على الملائكة أن يبينوا لنا أحكام الله تعالى ، لأن رسول الله ﷺ علمنا أحكام الله سبحانه بقوله وعمله وحاله ، فعلمنا الصوم بالعمل ، وعلمنا الزكاة بالعمل ، وعلمنا الصلاة بالعمل ، والطهارة بالعمل ، وليست الملائكة أهلا لأن يأكلوا ويشربوا ويركعوا ويصوموا صيامنا ويتركوا شهوتي البطن والفرج ولا أن يخرجوا أموالهم لأنهم مجردين عن المادة ولوازمها ، ولذلك قال تعالى : [وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا] إذن فلا بد من إنسان مثلنا يصطفيه الله تعالى ويعلمه ما يحبه ويرضاه من خلقه ، ويرسله رسولا إليهم يبين لهم ما فرضه عليهم بالأقوال والحركات والسكنات ، حتى يكون المؤمن في حال تقليده لرسول الله مطيعا لله عينا.

وهنا مسألة أخرى وهي أن الله يقول [مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ] ليبين لنا أننا إذا أطعنا رسول الله ﷺ فإله يقبل إقتدائنا برسوله ويعدده طاعة لذاته العلية ، ويعطينا الجزاء منه على قدره لأعلى قدر إقتدائنا بإنسان مثلنا ، وهذه الآية هي الحجة القائمة على كمال إيمان المسلم ، وبها بيان المحجة التي هي صراط الله المستقيم الذي نسأل الله في كل يوم وليلة أربعا وثلاثين، مرة فنقول : [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] في كل ركعة من الركعات فرضا ونفلا.

وآل العزائم يحرصون على التشبه برسول الله ﷺ في كل أعمالهم ، حتى في الرخص فإنهم يرون الأخذ بها في حالة الرخصة عزيمة لأنها منحة من الله ورحمة بنا منه سبحانه ، فلا يعمل بالرخص منا عند مقتضياتها أحد إلا معتقدا أنه يعمل بالعزائم ، وقد أرسله لنا سبحانه إنسانا لنأكل كما يأكل ونلبس كما يلبس وننام كما ننام ونتزوج كما يتزوج ونتجر ونزرع ونعمل كل أعمالنا الشخصية متشبهين به ، حتى نكون في كل أحوالنا وأطوارنا على سننه ومنهجه القويم صلوات الله وسلامه عليه ، وكيف نخالف رسول الله ﷺ والله تعالى يقول [مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ]

(1) سورة الرحمن : 1 ، 2 ، 3 ، 4.

(2) سورة ق : 37.

(3) سورة النساء : 65.

ومن شر الجهالة أن يقتدى الإنسان بجاهل بدين الله وشريعة رسوله ، فيخالف به السنة ويبعده عن الكتاب ، ويدخل في دين الله ما ليس منه ، ويخرج منه ما هو منه ، ويعتقد الجاهل أنه على الحق الصريح ونسى أن الله يقول : **[مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ]** اللهم إلا ما قدمت لك من أن الرخص في مقتضياتها عزائم ، كما أباح الله لنا عند الضرورة ما حرم علينا ، وأباح لنا رسول الله ﷺ أشياء كثيرة تقضيها الضرورة أو الحكمة ، مما حرمه علينا حتى أباح الله لنا في القرآن أننا عند الضرورة ننطق بكلمة الكفر مع طمأنينة قلوبنا بالإيمان ، وهذا من نهاية رحمة الله بنا حيث رخص لنا لنجاتنا فيما يكرهه.

وقد شرط الله تعالى لإطاعة رسوله الاستطاعة في الأوامر ، فيسارع إلى أوامر الله وما بينه منها رسوله ﷺ بقدر استطاعته ، ويترك المنهي عن مطلقا ، وما رخص فيه لنا الله تعالى ورسوله ﷺ ليس مما حرم الله علينا عند المقتضيات ، ولأجل أن نكون أطعنا رسول الله ﷺ حقا يلزم أن نحفظ ألسنتنا ولا نتكلم بها إلا بما تكلم به رسول الله ﷺ ونحفظ أعيننا وأذاننا وبطوننا وأيدينا وأرجلنا وفروجنا مطلقا ، وعلينا أن نعتقد أن المؤمن الكامل يستحيل أن يرى نفسه في خلوة ، وكيف يظن أنه في خلوة والله يقول **[وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ]** ويقول سبحانه **[مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ]** الآية.

أما أهل الجهالة فإنهم إذا أغلقوا أبوابهم ولم يجدوا معهم أناس ظنوا أنهم في خلوة ، وكيف يخشون الناس ولا يخشون الله بعد هذا البيان ، اللهم ارزقنا مراقبتك سرا وجهرا وحسن معاملتك غيبا وحضورا واعصمنا من مخالفة حبيبك ﷺ أنك مجيب الدعاء.

ومن ظن أن رسول الله ﷺ بشر مثلنا فقد جهل قدره المحمدي عند الله تعالى ، وهل بعد قوله لنا **[مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ]** نراه بشرا كما رآه أهل الكفر بالله في خبره عنهم "ما نراك إلا بشرا مثلنا" ومن نظر إلى بشرية الأنبياء أو الأولياء حجب عنه الله وحرّم المزيد من الفضل ، فإن الله خلق آدم من طين ومنحه الخصوصية التي بها أمر الملائكة بالسجود له ، فأبى الخبيث الذي رآه طينا وجهل خصوصيته وفضله ، وقال ما أخبر به الله عنه "أسجد لمن خلقت طينا" هو طين حقا ولكن الله رفعه فوق الملائكة الكرام ، **[ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ]** وكذلك رسول الله ﷺ هو بشر حقا ولكن الله اصطفاه فأقامه مقامه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقوله "من يطع الرسول" وقوله "فإن الله ورسوله أحق أن ترضوه" وكيف تحجبنا بشريته ﷺ عما جملة الله به من الجمال العلى الذى به صار من يكذبه كافرا ولو آمن بكل الرسل الكرام السابقين عليه وعليهم السلام ، وأن كمال الوصول إلى الله والفوز بالقرب من جلاله متوقفات على متابعه والحرص على العلم بسنته "ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا" ومن أنكرك عليك ما جئتهم به من عند الله تعالى ، وتول عنك فلا تجد في نفسك غضاظة من توليه ولا تحزن عليه ، فأنى أنا الذى قدرت الهداية والإضلال فأهدى من أشاء وأضل من أشاء.

وقول تعالى : **[فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا]** أى فأنا ما أرسلناك حفيظا عليهم ، ولكننا أرسلناك رسولا مبلغا ما أمرتك أن تبلغه لهم ليكون حجة لهم أو عليهم ، فمن آمن بك واتبعك كنت له حجة يوم القيامة ، ومن تولى كنت حجة عليه ، والهداية هدايتي وقد أقمتك هاديا هداية البيان ، وأنا الذى أهدى هداية الإحسان ، وإنك لتتهدي إلى صراط مستقيم أى هداية البيان وقال تعالى **[إِنَّكَ لَا تَهْدِي]**

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ] وقال تعالى [وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ] وقال تعالى [قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ]

وهذه الآية تثبتنا من الله تعالى لرسوله ﷺ ، وطمأنينة لقلبه مما كان يلم به من الحزن بسبب إنكار أهل الكفار بالله تعالى عليه ، لأنه ﷺ كان يحزن حزنا يكاد به يذهب نفسه قال تعالى [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ] وقال تعالى [فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ] كل هذا كان لأنه حريص على إيمانهم رءوف رحيم بالمؤمنين ﷺ فكان يحزنه الأمر وجملة الآية شرطية.

قوله تعالى : [وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا] (81).

وهذه الآية الشريفة كشفت الستر عن المنافقين ، وكشفت لرسول الله وأصحابه ما تكنه قلوب المنافقين من النفاق والكفر فقوله تعال [وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ] أى سمعنا وأطعنا وهم فى مجلس رسول الله ﷺ ، اعترافا برضاهم بما جاءهم به رسول الله ﷺ.

قوله تعال : [فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ] أى إذا خرجوا من عنده ﷺ اجتمعوا ففكروا فى الأمر وجدوا به وأنكروه وتربصوا الدوائر للمسلمين والتفكير فى العناد يقال له تبیت يبیتون أن يكيدون.

قوله تعالى [غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ] أى يبیتون العناد والمعصية قوله تعالى [وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ] أى يحفظ لهم سوء عملهم فيسجله لهم فى سجل الأعمال كتابة مع علمه بأعمالهم وعدم نسيانه لها قال تعالى [وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا].

قوله تعالى [فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ألا يعبأ بشأنهم إهمالا لهم وحفظا للأوقات من أن يصره فيمن هم أضل من الأنعام وأحقر من التراب عند الله تعالى.

قوله تعالى : [وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ] التوكل على الله هو تفويض كل الأمور لله تعالى مع الاحتياط من أعدائه ، وحقيقة التوكل أن يتمسك العبد بالأسباب على أنها أسباب فإنه يعرف الإنسان بها رقه من عمل الدنيا والآخرة ، وليس التوكل ترك الأسباب كما يعمل أهل الجهالة ، فإن من ترك الأسباب وعليه وأجب لأهل أو زوجة أو والدين خالف صريح النص ، داعيا إلى الحق مبينا مناهج الشريعة ، جامعا الخلق على ربهم ، واثقا بما عند الله تعالى ، راضيا بما قدره الله له راضيا عن الله بالقليل من الرزق ، وأما من لم يبلغ هذا المقام فالأولى له أن يقوم توكله وهو عامل بالأسباب حفظا لقلبه من الشغل بما يحجبه عن الله تعالى ، والسعى فى طلب المعاش عبادة فوق كل العبادات ، وقطرة عرق فى طلب معاش أهل وأولاد ووالدين خير من قناطر دم فى سبيل الله ، وأكمل المتوكلين هو رسول الله ﷺ وكان يخزن قوت السنة لأهله من غلة أرضه ، وفى ذلك خير بيان لمن يعمل بسنته عليه الصلاة والسلام.

[وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا] يعنى أن العبد المؤمن إذا توكل على الله مع ما بينته لك كفاه الله هموم الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : [أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا] (82).

تشنيع من الله تعالى على الذين كانوا إذا جلسوا مع رسول الله قالوا طاعة لأمرك يا رسول الله ، فإذا برزوا من عند رسول الله بيتوا الكيد وأجمعوا على النفاق والكفر ، فشنع الله عليهم بقوله "أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ" بأذان قلوبهم حتى يحصل لهم نور يتدبرون به ، فتشرق عليهم أنوار القرآن فيسلمون لله تعالى ولرسوله ﷺ تسليما ، والاستفهام هنا للإنكار عليهم.

[وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا] والقرآن المجيد غض رطب لا يخالف بعضه بعضا ، وكل حرف فى حروفه كلمة بل كل آية تحفظ أنوارها قلوب أهل الإيمان بالله وتقسم ظهور أهل النفاق والكفر بالله ، لأن القرآن لو كان من الخلق لضرب بعضه بعضا وخالف ، ولكنه كلام الله القديم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والحقيقة أنه لو كان من عند غير الله لظهرت فيه المخالفات والمفارقات والصدق والكذب.

قوله تعالى : [وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا] (83).

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة ، وهى تشنيع على هؤلاء المنافقين قبحهم الله ، ومعناها أن المنافقين كان إذا بلغهم خبر سرية من سرايا رسول حصل لها نصرة وتأييد وأمن وخير أشاعوا هذا الخبر ، وإذا جاءهم خبر عن سرية حصل لها هزيمة وخوف أو جروح أو كلوم أشاعوا هذا الخبر ، يريدون بذلك إدخال الدسائس على قلوب المؤمنين [أذاعوا به] أى نشره بين الناس بقصد نشر السوء والمضرة.

[وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ] أى ردوه إلى رسول الله ﷺ ، أى أرجعوه إليه وإلى ولاية الأمور من المسلمين لعلم رسول الله ونوابه من ولاية المسلمين ، وبحثوا عنه بحثا دقيقا حتى يبينوا حقه من باطله وصدقه من كذبه ثم يذيعون به بين الناس "الذين يستنبطونه" الذين يخرجون حقائقه ، لأن الاستنباط هو استخراج الشئ الخفى ، والنبط هو الماء الذى يحفر عليه فى الأرض حتى ينبع ، ويستنبطه لغة يخرج به ، ولما كانت تلك الأخبار لا بد فيها من البحث حتى يظهر صدقها من كذبها سميت استنباطا ، وكذلك العلماء إذا سئلوا عن أمر وكان غامضا بحثوا عنه ، وهذا هو الاستنباط.

[وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ] أما فضل الله فعنايته الأزلية التى سبقت باختصاص المخلصين من الصحابة للمحافظة عليهم قلبا وجسما ، وأما رحمة الله العامة فهو رسول الله ﷺ قال تعالى [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ] (1).

[لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا] أى اقتديتم بعمل الشيطان فوقعتم فى الكفر أو النفاق أو الشك والريب فى السنة "إلا قليلا" وذلك لأن الشيطان نعوذ بالله من كيده يوسوس فى قلوب المنافقين

(1) سورة الأنبياء : 107.

فيسعى المنافقون إلى وقوع الغش بين الصحابة ولولا تثبيت الله للمسلمين لاتبعوا شياطين الأنس والجن ولكن [مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا] (1).

قوله تعالى : [فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا] (84).

أمر من الله تعالى بقتال أهل الكفر به سبحانه ، [لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ] أى لست مسئولا عن غيرك ممن يقاتل معك ومن تقاتلهم بل أنت مسئول عن نفسك نية وقصدا وعملا بقدر مكانك من الله تعالى . [وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ] أى حث أهل الإيمان بالله على قتال أعداء الله لإعلاء كلمته تعالى ومحو الظلم والكفر لينالوا بالجهاد الحسنيين أو إحداهما.

وعندى أن المجاهد فى سبيل الله نال الحسنيين ، فأن قتل فى سبيل الله نال حسنى الشهادة وفاز بالآخرة ، وأن نصره الله ورجع نال حسنى الغنيمة والسلامة وإعلاء الكلمة فى الدنيا وجوار الأخيار يوم القيامة.

[عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا] تقدم لك معنى عسى فى القرآن ، وأن يرد أن يمنع بأس الذين كفروا أى شدتهم وظلمهم وعدوانهم "والله أشد بأسا" أى والله أشد انتقاما وقهرا للكافرين "وأشد تنكيلا" والتنكيل هو النكال والعذاب الأليم.

قوله تعالى : [مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا] (85).

لما أمر الله عليه الصلاة والسلام أن يحرض المؤمنين على القتال ، بين له أن عمله هذا شفاعا وأنها شفاعا حسنة من القول فله أجر ، وأن خالفوه فله أجر ، وأيضا لما كان بعض المنافقين يتشفع إلى رسول الله فى أن يبيح له التخلف عن القتال كانت تلك شفاعا سيئة ، لأن الشفاعا الحسنة ما كان الداعي لها يدعو إلى خير شرعي ، وأما من تشفع لعمل معصية فهى سيئة ، وأيضا لما كان بعض المؤمنين يسارع إلى القتال وليس عنده زاد ولا راحلة فكان بعضهم يشفع إلى الأغنياء أن يساعده بالمال والراحلة ، وتلك هى الشفاعا الحسنة ، وفى هذه الآية حث للمؤمنين أن يشفع بعضهم لبعض فى نيل الخير الذى تنتجه الشريعة ، وجعل الشفاعا فيما هو مشروع خيرا فالآية مرتبطة بالتي قبلها ، والعلي أن كل من تشفع عند غيره لغيره فى خير كانت شفاعته حسنة وكان له من الله خير الجزاء أكثر من الشفاعا ، ومن يشفع شفاعا سيئة كان عمله عند الله سيئا وكان له كفل منها أى نظيرها.

[وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا] والمقيت هو الحفيظ الرشيد لأن القوت أما أن يكون للأشباح وأما أن يكون للأرواح ، فأن كان للأشباح فهو من إمداد الحفيظ الذى يحفظ الأشباح بما لا بد منه ، وأن كان من عطايا الأرواح كان من الرشيد الذى يرشد عباده إلى عمل الخير وقول الخير ، والمعنى كان الله على كل شئ قديرا قدره حفظ وإرشاد.

قوله تعالى : [وَإِذَا حُيِّثُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا] (86).

(1) سورة الكهف : 17.

بعد أن بين جل جلاله الأحكام السابقة ن أخذ يبين الآداب التي تربط القلوب وتزيل عنها الشحاء قال تعالى [وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ] أى إذا دعاكم غيركم لطول الحياة والسلامة والعافية فحيوا بأحسن منها ، أى حيوه بأحسن منها ، فإن قال لكم السلام عليكم فقولوا عليكم السلام ورحمة الله ، وأن قال أطال الله عمرك فقل أطال الله عمرك ووفقك لما تحبه ، وهذا هو رد التحية بأحسن منها ، قوله تعالى [أَوْ رُدُّوْهَا] أى ردوا على المحيى تحيته بقدرها ، فإن قال السلام عليكم فقولوا وعليكم السلام ، وهنا يراعى الإنسان أمر السنة المطهرة ، فقد قال ع "أنزلوا الناس منازلهم" ولا يكون ذلك إلا عند التحية ، وقد قال بعض العلماء وإذا حياكم المسلمون بتحية فحيوا بأحسن منها ، وإذا حياكم غير المسلم فردوها كما قال ، وكان ع إذا دخلوا عليه اليهود وقولوا السام عليكم ، والسام فى اللغة هو الموت والهلاك ، فيرد عليهم ع وعليكم ، وهذا الرد من حسن الإجابة ورد كيدهم ، والأولى للمسلم إذا حياه أخوه المسلم أن يهش فى وجهه ويبش ويحييه بأحسن مما قال جمعا للقلوب ، وإذا حياه غير المسلم أن يرد عليه ما قال ليطفئ نار الشيطان من قلبه.

قوله تعالى [إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا] تأول بعضهم حسيبا أى محصيا لكل شئ ومحاسبا ، والأولى أن تكون المعنى أن الله على كل شئ رقيباً - بدلا على - بالنسبة لأن رقيباً يناسب على بخلاف لو قال تعالى - بكل شئ حسيبا - .

قوله تعالى : [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا] (87).

[اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ] يعنى أن الله تعالى هو الذات التى انحصرت فيها الألوهية دون غيرها ، والإله لغة هو من يألوه إليه كل مخلوق بالعبادة والإله هو الذى يتحير من عظمتة وكبريائه كل شئ ، فلا إله يعبد بحق ويحير العقول والأرواح ويقصد إليه كل شئ إلا هو جل جلاله ، وقد شرحت معنى الله لا إله إلا هو فى آية الكرسي وفى قوله تعالى : [وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ] وقد كتب رسالة سميتها عقيدة النجاة فراجعها أن شئت ، وقد طبعت ونشرت نفع الله بها قارئها.

قوله تعالى : [لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ] اللام هنا للقسم والفعل مؤكد بنون التوكيد برهان على أن القيامة آتية ولا مناص ، وأن الله تعالى هو الإله الحق القادر على أن يحيى الخلق ويعيدهم ليحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة ، وفى هذه الآية الشريفة إنذار شديد من الله تعالى لأهل الكفر به ، وتخويف لأهل الإيمان به حتى يراقبون جلاله ويخافون عقوبته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

[وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا] يعنى هذا الخبر الذى أخبرنا الله فيه بجمعنا ليوم القيامة ، حديث الله تعالى الغنى عمن سواه المفتقر إليه كل ما عداه ، الذى لا يكذب أبداً لأن الكذاب إنما يكذب لدفع ضرر عن نفسه أو جلب خير لها ، والله سبحانه وتعالى هو الضار النافع ويستحيل عليه تعالى أن يكذب ، فلا حديث أصدق من حديثه لاستحالة الكذب عليه جل جلاله ، والواجب علينا عند سماع مثل هذه الآية أن نقول بقلوبنا وألسنتنا - لا أحد - أى لا أحد أصدق من الله تعالى.

قوله تعالى : [فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا] (88).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم اختلفوا فيمن ارتدوا إلى المدينة فى غزوة أحد وهم عبد الله ابن أبى بن سلول ومعه المنافقون ، فقال بعضهم نقتلهم ، وقال بعضهم إخواننا نتألفهم، ونزلت أيضا فى شأن قوم ممن تكلموا بالإسلام فى مكة ولم

يهاجروا وظاهروا المشركين على المسلمين ، فقال بعض الصحابة نقتلهم ، وقال بعضهم لا نقتلهم ، وفي قوم خرجوا من مكة إلى المدينة وادعوا أنهم مسلمون ثم استأذنوا رسول الله ﷺ بالرجوع إلى مكة ، فقال بعض الصحابة هؤلاء المنافقون تقتلهم وقال بعضهم لا نقتلهم وورد غير ذلك . ومعنى الآية والله أعلم ، يقول الله تعالى للصحابة ما شأنكم في المنافقين فئتين ، فئة تأمر بقتلهم وفئة تأمر بعدم قتلهم [وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا] في ردهم إلى حال الكفار فأبيحت دماءهم وأموالهم وأولادهم .

[أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ] الهمزة للاستفهام الإنكاري ، فالله تعالى ينكر على الصحابة اختلافهم في المنافقين بعد أن ظهر نفاقهم ، فقوم يريدون هدايتهم ، وقوم سمعوا كلام رسول الله ﷺ يخبرهم عن الله تعالى ، وشهدوا المعجزة الباهرة بقلوبهم التي تعقل عن الله ، أن أهل الضلالة لن يهديهم أحد بعد رسول الله ، وقد قامت الحجة على أن الله أضلهم ، ولا أحد في عالم من الملائكة والأنس والجن يهدي من أضله الله ، قال تعالى [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ]⁽¹⁾ . فكيف يطمع إنسان في هداية من بين له رسول الله ﷺ فاستحالت هدايته ، ومن ثم فلن يهتدى على يدي غيره ، لأن من سمع كلام رسول الله ﷺ وشهد معجزاته الباهرات كيف يطمع أحد أن يهديه ببيان غير بيان رسول الله ، والله سبحانه يقول : [أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ] من الذين سجل عليهم القضاء بالكفر أزلا وحجة ذلك أنهم سمعوا كلام الله تعالى من رسوله ﷺ فلم يقبلوا فحكمنا بأنهم أشر من الكافرين .

[وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا] هذه الآية أثبتت التوحيد الخالص فبينت أن الفاعل المختار والحكم العدل هو الله تعالى ، وأنه تنزه قدر الأقدار أزلا فأحب من شاء وهداه واصطفاه ، وكره من شاء وأبعده وطرده بمحض مشيئته لا لعل ، لأن هذا القضاء كان قبل وجود العالم ، فلا علة من الإنسان في البعد ولا سبب للإنسان في القرب ، أقام من شاء فيما شاء ، قال تعالى [فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا]⁽²⁾ فالجملة شرطية ، ومعنى فلن تجد له سبيلا أن لن تجد له طريقا يسلكه إلى الله ، ولا وسيلة تقربه إلى الله ، ولا هاديا يهديه إلى محاب الله تعالى ، حتى ولو وجد السبيل لما ازداد إلا كفرا وبعدا ، أى فلن تجد له سبيلا ينقله من الكفر إلى الإيمان أبدا .

قوله تعالى : [وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا]⁽⁸⁹⁾ .

معنى هذه الآية أن الله يخبرنا أن أعداء الله من المشركين والكفار والمنافقين يريدون أن يكيدوا لنا حتى نرجع عن ديننا – أعاذنا الله – فنكون مثلهم في الكفر ، وهذه الآية وأن نزل في الصحابة فإن حكمها عام ولا يزال ، فأنت ترى في كل بلد إسلامي رجالا ضلالا يدعون إلى النصرانية وإلى اليهودية وإلى مخالفة السنة والكتاب بكيد وحيل وفتن عمياء ، وشر الفتن في هذا الزمان دعاة النصرانية الذين يسمونهم كذبا وبهتاننا مبشرين ، فأنهم قبحهم الله يجلسون بين العامة

(1) سورة القصص : 56 .

(2) سورة الأنعام : 125 .

البسطاء من المسلمين ويأتون بذكر المسيح ويقولون أنه ابن الله ، وأنه ليس له والد وأنه أحيا الموتى وشفا المريض وغير ذلك من العبارات التي لا تقبلها عقول البهائم الراتعة ، فالعقل يرى أن الطبيب الماهر قد يسعف من أصابته سكتة قلبية أو اختناق تنفسى فيعيد له الصحة والحياة بعد فقدهما من تأثير المرض ، ونرى طبيب العيون قد يأخذ الماء من على العينين فيعود لهما البصر بعد فقداه ، ونرى الطبيب يخرج الماء من بطن المريض بالاستسقاء فتعود صحته بعد إخراج الماء بلحظة ، ونراه أيضا يفتح البطن فيستأصل كلية أو قطعة من الكبد أو "المصران الأعور" وهو كافر لا يؤمن بالله ، فإذا ظهر ذلك على يد رسول من الرسل فذلك أمر ليس بغريب ، ولا يقتضي الوهية الطبيب ولا أنه ابن الله ، لأن آدم لا أم له ولا أب وحواء لا أم لها ولا أب ، فأن كان من ليس له أب يكون أبن الله ، فإننا نرى الجرزان والديدان الحقيمة توجد من العفونات والخبائث ، وترى النباتات المضرة تنبت على شواطئ الأنهار والذائب "الجداول" بلا بذر ولا حرث ، قبحهم الله يقولون هو ابن الله قتل ابنه ليخلص آدم من أكل الشجرة لعجزه عن خلاص آدم وقبول التوبة عليه ، وأعجب من هذا يدونون هذا في كتبهم وينشرونه في المحافل وعلى المنابر لا حبا في المسيح ولكنها حيلة لسلب مرافق حياة الأمم.

[فَتَكُونُونَ سَوَاءً] أى فتكونون فى الكفر سواء معاداة للحق وحربا على أهله.

[فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ] أى لا تجعلوهم يتولون لكم أمرا ولا تتولوا أنتم لهم أمرا ، فأن ولى فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، والمعنى هنا لا تخلصوا لهم فى المعاملة ولا تأمنوا جانبهم ولا تعيذوهم أى لا تتولهم.

[حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ] هذه الآية نزلت فى قوم من مشركي مكة كما قدمت لك ، تكلموا بالإسلام ليأمنوا المسلمين وظاهروا أعداء الله عليهم وأبوا الهجرة وظنوا بهذا أن يتمتعوا بنسبتهم الباطلة للإسلام ، فبين الله لنا حالهم ونهانا أن نتخذ منهم أولياء حتى يقيموا الحجة على إيمانهم بالهجرة.

[فَإِنْ تَوَلَّوْا] أى ارتدوا إلى الكفر ورجعوا إلى حقيقتهم التى يخفونها عن المسلمين فعاملوهم معاملة الأعداء.

[فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ] فخذوهم فى أى مكان كانوا سواء بمكة أو بغيرها ولو بالمدينة "واقتلوهم" أى أريحوا أنفسكم وأريحوا العالم منهم ، فإن مثل هؤلاء المنافقين أضر على المسلمين من الكافرين ، لأن الكافر كفره معلوم للمسلمين أما المنافق فقد يغتر به المسلم فيكشف للأعداء عورات المسلمين.

[وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا] لكم كما تقدم [وَلَا نَصِيرًا] تستعينون به فى إعلاء كلمة الله ولا فى شأن من مصالحكم الخاصة لأنهم يبطنون العداوة لكم ويتربصون بكم الدوائر.

قوله تعالى : [إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا] (90).

استثنى الله تعالى من الأحكام السابقة قوما اتصلوا بقوم برابطة
 ×××××××××××××××××××× وبين الذين اتصل بهم هؤلاء المنافقين ميثاق ، فإن الله تعالى نهانا عن قتلهم محافظة على المسلمين الذى كانوا إذ ذاك قليلا ، وقد نسخ هذا الحكم فى سورة براءة ، وغيرها كما سيأتى.

[أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ] أى أو جاءكم هؤلاء القوم الذين ثبت لكم نفاقهم واستوجبوا بنفاقهم القتل [حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ] أى ضاقت من ضعف أو عجز أو قلة [أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ] لما بينكم وبينهم من المصاهرة والنسب والصلة ، لأن قلوبهم لم تتذوق حلاوة الإيمان ولذة التقوى ، فقهرتهم عواطف النسب أو القرابة لأنهم لا يعتقدون بصلة لغيرها أى فلا تقتلوههم.

[وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ] أى ولو شاء تسليطهم عليكم لفعل ، لكنه سبحانه رحمة بكم ملاً قلوبهم رهبة منكم وخوفاً وأذلهم لكم [فَلَقَاتِلُوكُمْ] أى فحصل منهم القتال لكم ، والله حفيظ عليكم رءوف رحيم بكم ، فأذلهم وأخضعهم لكم رحمة منه بكم وإحساناً لكم.

[فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ] يعنى أن الله تعالى يبين لنا أن هؤلاء القوم أن تكونوا وشأننا فلم يعارضونا فى شئ ن ولم يتعرضوا لقتالنا وسالمونا مسالمة تنبئ عن حسن نية وسلامة طوية [فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا] أى لم يجعل الله لنا عليهم سلطاناً ولا مؤاخذه نؤاخذهم بها ، والسبيل تقدم بيانه.

قوله تعالى : [سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا] (91).

قوله تعالى : [سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ] الخ الآية هذا نوع آخر من أنواع النفاق وهم أفبح المنافقين قاتلهم الله ، يبين الله لنا صفاتهم.

أي تسرون قوماً آخرين هم شر المنافقين وصفتهم أنهم [يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ] لينتفعوا بتظاهرهم بالإسلام بما يروونه خيراً من سلامتهم من الموت ، وحفظ أموالهم وأولادهم وجلبهم المنافع ، بسبب إظهارهم الإسلام بالسنتهم فى تجارتهم وزراعاتهم "ويأمنوكم" أى يأمنون جانبكم وجانب قومهم ، وهم أعداء الله تعالى وأعداء نبيه ﷺ وأعداؤكم فى الحقيقة ونفس الأمر.

[كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ] أي رجعوا إلى قومهم [أُرْكِسُوا فِيهَا] وتقدم بيانها وقد كان بعضهم يقول لمن أقهره الإسلام ، قل الحتفة ربى والعقرب ربى والكلب ربى استهزاء بالإسلام.

[فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ] أي فإن لم يمتنعوا عن تظاهرهم بالإيمان أمامكم وأركاسهم فى الكفر إذا رجعوا إليهم ، ويسلمون أمورهم إليكم مسلمين عليكم "ويكفوا أَيْدِيَهُمْ" من العدوان عليكم.

[فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ] [بأي بلد من البلدان] [وَأُولَئِكَ] الإشارة إلى هذا النوع من المنافقين الذين بين الله صفاتهم.

[جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا] أى مكناكم منهم وصرفناكم فيهم عدلاً منا وحكمة وإحساناً إليكم ورحمة.

قوله تعالى : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[92].

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الصحابة في يوم وقعة أحد رأوا اليمان والد حذيفة رضى الله عنه فحسبوه مشركا ، فنزلوا عليه بسيوفهم وحذيفة يقول أبى أبى ولم ينتهوا حتى قتلوه ، فقال فعلتم الفعلة غفر الله له ورحمكم الله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فغضب لهذا ، وكان رجل من كبار قريش أسلم قبل الفتح وذهب إلى رسول الله ﷺ ، وكان أبو لهب خاله ، فقامت أمه إلى أبى لهب وقالت أحضر لى أبني ، فتوجه ومعه رجل يسمى الحارث حتى وصل إلى المدينة ولقيه ، فقال له أليس محمدا يأمرك ببر والدتك ، قال بلى ، قال أذهب معنا فبرها ثم أرجع إلى دينك وإلى محمد ، فذهب معه فلما خرجوا من المدينة قيد أبو لهب يديه ورجليه وضربه مائة جلدة وضربه الحارث مائة جلدة أخرى ، فلما وصلوا إلى مكة قالت أمه لا تحلوا قيوده حتى يرجع إلى دين أبيه ن فقال الحارث بعد رجوعه مكرها أن كان دينك الأول باطلا فلم رجعت إليه الآن ، فأغاضه فأقسم بالله ليقتلنه . ولقيه بعد ذلك والحارث مسلما فقلته غير عالم بإسلامه ، فبلغ الخبر رسول الله ﷺ فأنزل الله قوله سبحانه [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً] أي لا يقتل مؤمنا ، ولا يقتل المؤمن إلا الكافر ، وقد استثنى الله من الحكم قتل المؤمن خطأ ، وقد فصل لنا من قتل المؤمن عمدا فيما تقدم .

وهنا يبين لنا حكم من قتل المؤمن خطأ ، والقتل عمدا أن يقتله بآله مفرقة للأعضاء متربصا ، والقتل خطأ أن يكون الإنسان في ملحمة ويضرب الكافر فيصيب مؤمنا ، أو يضرب صيدا فيصيب مؤمنا ، أو يضرب بعصا لا تقتل عادة أو بيده أو ما أشبه ذلك.

[وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ] ، قدم العتق في هذه الآية على الدية ، وقدم الدية في غيرها على العتق لمناسبات ، ودية الرجل مائة ناقة ، ودية المرأة نصفها ، ودية المجوسى ربع دية المؤمن ، واليهودى والنصراني من أهل الذمة عشر دية المؤمن ، وقيد العتق برقبة مؤمنة لأن المراد من العتق رجوع الإنسان إلى حقه الذى له من الحرية ، وإطلاق التصرف والمستحق لهذا هو الرقيق المؤمن ، حتى يكون قربه عند الله تعالى ، وأهله معلومون وهم الورثة أو ترد إلى العاقبة.

[إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا] أى يتصدقوا على القاتل بالدية لكمال إيمانهم.

[فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ] بين الله لنا في هذه الآية أن الدية لا تعطى إلا لأهل المؤمن ، أو لأهل الذمة ، أو المعاهدين ، فإن كانوا كفارا أعداء لنا عداوة حربية أو عداوة نصرة للأعداء سقطت الدية عن القاتل ، لأنه بإعطائهم الدية يعينهم على حربنا .

[وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ] قدم سبحانه الدية هنا تأليفا لقلوب القوم ، وبيانا لهم أن الدين الإسلامى دين الرحمة والشفقة والمعاونة طمعا في إيمانهم ، وآخر العتق لتلك المناسبة ، وهذا الحكم لمن كان بيننا وبينهم ميثاق وهدنة وتبادل في المنافع.

[فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ] بين الله لنا حكم الدية في قتل المؤمن الذى هو من قوم كافرين بيننا وبينهم ميثاق ، أما القاتل إذا عجز عن دفع الدية فلا يقوم عائلته لأن القوم كفار والدية لهم معونة ، والواجب أن يعتذر القاتل ويضمن لهم أن يعطيهم الدية عند يساره ليزيل حقدهم

، ثم أراد الله تعالى أن يطهر المؤمن مما ألم بنفسه من نجاسات الخبث وقسوة القلب إذا لم يجد الدية التي تؤثر عليه هذا الأثر ، فحكم على القاتل بصيام شهرين متتابعين حتى يتجرد من مقتضيات البشرية والحيوانية ، ويطهر من بواعث النفس الإبلسية والنفس السبعية والشهوانية ، فيشعر قلبه بالرحمة العامة لكل حي [تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ] أي طهره من الله وجذبة يرجع بها العبد القاتل خطأ إلى الله تعالى.

[وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] أي محيطا علما بخواطر القلوب ودسائس النفوس ، حكيما فيما أحكمه وحكم به شفاء لأمراض المجتمع ولأمراض الأفراد.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا](93).

سبب نزول هذه الآية أن رجلا من الصحابة قتل رجلا وكان القاتل من الأنصار ، فجمع رسول الله دية المقتول من بنى النجار عائلته وأعطاهم لأخ القاتل فقبلها ، ثم بعد ذلك أنتهز فرصة فقتل أخا القاتل ورضخ رأسه بين حجرين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة.

وورد أيضا أن رسول الله أرسل سرية فكان قتال بينها وبين من أرسلت إليه ، حتى جاء رجل فقال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقتله رجل من الصحابة بعد أن قال كلمة الإسلام ظنا منه أنه يدفع عن نفسه بها ، فأنزل الله هذه الآية ، وهى أشد آية فى القرآن المجيد حيث لم يجعل المؤمن قتل مؤمنا عمدا توبة ، وقتل المؤمن عمدا أن يضربه بالسيف والمسكنة "البندقية" ، أو يضربه بألة مفرقة للأعضاء ، أو وكزه فقتل عليه ، أو ضربه بعصا أو بخشبه ضربا متواليا حتى قتله ، كل ذلك هو العمد ، وأن قال بعض العلماء أن العمد ما كان بسلاح فقط كسيف وسلاح ناري ودليلنا من القرآن قوله تعالى خبرا عن القبطى لموسى عندما هم أن يدفعه عن الإسرائيلى [أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ](1) وقول موسى [إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا](2) فسمى الوكزة التى قضت على القبطى قتلا ، ومن قتل المؤمن مستبيحا دمه وهو يعلم أنه مؤمن فهو كافر ، وحكمة هذا الحكم أن القلوب التى نزع الله منها الرحمة وأبدلها بانتقام وقسوة خلقت من أسفل سافلين وكان الله خلقها لتكون خالدة فى النار ، دليل ذلك أن الله أبرز على يديها ما يغضبه ويغضب الخلق وهو قتل النفس المؤمنة بغير حق.

[فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا] أن شاء سبحانه أن يجازيه ، وأن شاء إلا يجازيه طهره فى الدنيا بما شاء أو غفر له يوم القيامة إذا شاء ، ونزع من صدر المقتول الفل والشحناء بما يهبه له من النعيم المقيم أن مات مسلما ، فإن كان مصمما على قتل القاتل كان هو والقاتل فى النار لأنه كان يحرص على قتله وإنما الأعمال بالنيات ، قال ع "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار".

[وَعُذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ] الغضب من الله تعالى أن يخلقه أزلا من سافلين ، وأن يقدر عليه أزلا الكفر به أو الوقوع فى الكبائر "ولعنة" أى قطعة من رحمته وأبعده عن القيام لحضرته بما يحب من الأعمال ، وهذه هى اللعنة.

(1) سورة القصص : 19.

(2) سورة القصص : 33.

[وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا] العذاب معلوم ، وعظيمة حرمانه من النعيم فى الفردوس الأعلى ، ومن النظر إلى جمال الله يوم القيامة ، كما يقول الله أجرا عظيما فالأجر معلوم وعظيمة رؤية جمال الله تعالى.

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا](94).

سبب نزول هذه الآية قتيل سرية لرسول الله بعد ما قال أى مسلم ، أو بعد أن شهد شهادة الحق ، أو بعد ما سلم عليهم قتلوه لغنيمة كانت معه ، أو غير ذلك من ملك فأخذوه منه ، وبسند بن جرير قال بعث النبي بمحلم بن جثامة فلقبهم عامر ابن الأضبط فحياهم تحية الإسلام ، وكانت بينهم ضغينة فى الجاهلية فرماه محلم بسهم فقتله ، فجاء الخبر إلى رسول الله فتكلم فيه عيينة والأقرع ، فقال الأقرع يا رسول الله سن اليوم وغير غدا "يريد العفو عن محلم" فقال عيينة لا والله حتى تذوق نساؤه من الشكل ما ذاق نساء عامر فجاء محلم فى يرددين فجلس بين يدي رسول الله ليستغفر له ، فقال له رسول الله لا غفر الله لك ، فقام وهو يتلقى دموعه بين برديه فما عرضت به سابقة حتى مات ودفنوه ، فلفظته الأرض ، فجاءوا إلى النبي فذكروه له فقال أن الأرض لا تقبل من هو آثم صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه من الحجارة ، ونزل قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا] والأمر بالتبين ورد فى القرآن فى قوله تعالى [إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا]⁽¹⁾ ومعنى الآية أن الله يأمرنا بالتدقيق فى البحث والنظر إذا خرجنا مجاهدين فى سبيل الله ، وذلك ما كان يفعله إذا وصل فى أرض العدو فإنه ينتظر الفجر ، فإذا أذنوا بالفجر حكم لهم بالإيمان ، وإذا بدرت منهم بوادر الإيمان سالمهم ، وكذلك فى الأخبار يجب على سامع الخبر أن يتبصر فلا يحكم بصحة الخبر ولا يكذبه إلا بعد البيان ودقة النظر خصوصا فى حالة القتال أو فيما يفتح أبواب الفتن على المسلمين ، ومن حكم قبل التبيين أثم ولو أصاب ، وقد بين الله حكمة هذا الأمر وهى العفف من الوقوع فيما يغضب الله ويضر الخلق.

[وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا] ومعنى إلقاء السلام الامتناع من الحرب ، أو النطق بكلمة الشهادة ، أو التحية بتحية الإسلام فيظهر سبحانه الحكمة من هذا الأمر والتشديد فيه فقال سبحانه مبينا دخائل نفوسهم.

[تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] . وتبتغون أى تؤثرن وعرض الدنيا أى الغنيمة والإسارى دراية لحالتهم وحاجتهم ، فطمأن الله تعالى قلوبهم ببيان أنه هو الغنى.

[فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ] وتلك المغانم الكثيرة ، منها تفضل الله ببيان الأحكام وإحسانه إليهم بحب الإيمان وكتابته فى قلوبهم وتزيينه فيها ، وجوده عليهم بالنصرة والتأييد ، وإذلال الأعداء لهم ، وعصمهم من الناس ، وتوالى إحسانه عليهم حتى يموتوا مسلمين ويرثوا الفردوس الأعلى يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وكل ذلك غير المغانم التى هى عند الله أعداها لأولياءه وأحبابه.

(1) سورة الحجرات : 6.

[كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ] الكاف هنا للتشبيه ، واسم الإشارة عائد للقوم المحوطين في الآية وهم المشركون الذين يقاتلونهم لأن "كذلك" أى مثل هؤلاء الكفار كنتم من قبل فمن الله عليكم ببعثة محمد ع إليكم ، فالواجب عليكم أن تتبينوا كما أمر الله تعالى بقوله : "فتبينوا" والأمر هنا تأكيد الأول ولكنه ذكره هنا بعد بيان حكمته ، فكأن يقول ولا تنسوا ما كنتم فيه قبل الإسلام ، فترحموا عباد الله تعالى وتقبلوا منهم ما كان عظيم وقع في النفوس ، حتى يراعى المؤمنون هذا الأمر رعاية تجعلهم يسارعون لنيل رضا الله بالتبيين ، والأخذ بالأحوط وأثار أمر الله على هواهم وحظهم ليسارع الناس إلى الإسلام إذا رأوا ما أنتم عليه من الرحمة والعطف فاحكموا عليهم بما أظهروه لأنكم مكلفون بالأخذ بالظاهر وعلى الله السرائر ، فمن قال كلمة الإسلام وجب عليكم أن تشجعوه وتؤيده ليمكن الإيمان من قلبه ، فإن كان منافقا عصمتكم منه وبيئت لكم حقيقته إذا أنتم سمعتم أمري فسارعتم إلى العمل به.

[إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا] بقلوبكم وجوارحكم خبيراً أى ذا خبرة به وعلم.

قوله تعالى : [لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] (95).

هذه الآية الشريفة دلت على أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين ، لأنه لو كان فرض عين لاثم القاعدون ، وسبب نزول هذه الآية الشريفة ما حصل فى بدر واحد وغيرهما من قعود أهل العافية واليسار عن اتباع رسول الله ع فى الجهاد ، ومعناها أن الله تعالى يخبرنا أنه ، لا يستوي القاعدون من المؤمنين أهل العافية واليسار.

"غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ" أى أهل العاهات كالمرض وكفيف البصر ، فإن أمثال هؤلاء لهم بقدر نيتهم فقد يكون لهم ما للمجاهدين ، وسبب قوله تعالى "غير أُولِي الضَّرَرِ" أن أهل العاهات أقبلوا على رسول الله ع يتقدمهم بن أم مكتوم الأعمى ، فقال يا رسول الله والله أنى أحب الجهاد ولكنى كفيف البصر وكاد أن يصرع من الغم ، فأنزل الله تعالى "غير أُولِي الضَّرَرِ" فسرى عنهم ورضوا بقضاء الله فى مرضهم.

"وغير" هذه أما أن تكون منصوبة على أنها حال ، أو مرفوعة على أنها مبتدئ لخبر محذوف على تقديره معفوا عنهم.

[وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ] أى لا يستوي عند الله القاعدون من المؤمنين الأقوياء الأغنياء ، والمجاهدون فى سبيل الله أى لإعلاء كلمة الله تعالى "بأموالهم وأنفسهم" وقدم المال هنا لأنه أعز على الإنسان من النفس ، ولأن النفس بدونه لا يكون لها قيمة فى نظر أهل الدنيا من حيث لوازم الإنسان الضرورية التى لا تنال إلا بالمال ، وقد يقتل المرء دون ماله ، ومتى بذل النفس والمال فى سبيل الله أدى الأمانة لصاحبها جل جلاله قال تعالى [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ] ⁽¹⁾ ومن باع السلعة وبخل بإعطائها كذب فى بيعه وسلبت قهرا عنه وأدخل فى نار جهنم.

(1) سورة التوبة : 111.

[فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً] أى رفعهم عنهم فى النعيم المقيم والمسرات الدائمة مما يشعر به المجاهدون فى الجنة ن وأن لم يشعر به غيرهم ، لأن الله تعالى أخبرنا أنه نزع من صدورنا الغل والحسد فلاغل ولا حسد فى الجنة ، ومن فى رياض الجنة من المؤمنين يرى نفسه مغبوطا بما هو فيه ، لأن الله جمل لهم مكائنتهم فلا يرون فى الجنة مقاما أعلى من مقاماتهم إلا بالحب والتعظيم الروحانى.

[وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى] أى وكلا من القاعدين والمجاهدين ، لأننا قدمنا أن تلك الآية أثبتت أن الجهاد ليس فرض عين ، فإذا قامت به فئة من الأمة سقط عن الباقيين ، اللهم إلا فى نقاط ثلاث فإنه يكون فرض عين على كل رجل وامرأة ، وذلك :

1- إذا احتل العدو دار قوم مؤمنين وجب عليهم أن يدفعوه عنهم.

2- وإذا عينه الإمام الأعظم على فئة من المسلمين تعين عليهم فرض عين.

وإذا هاجم العدو ثغور الأمة تعين على الجميع كل بقدره ، أما فى الفتوحات وأمثالها من رد البغاة وعصابات الخوارج فإنه لا يكون فرض عين على الكل لأن الله يقول : "وكلا وعد الله الحسنى" والحسنى هنا هي المغفرة والجنة.

[وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] ذكر فى الآية الأولى أنه فضلهم درجة وهنا يقول سبحانه [أَجْرًا عَظِيمًا] والأجر العظيم بلسان الله تعالى يدل على معان ثلاث: المعنى الأولى الرضوان الأكبر.

المعنى الثانية مقعد صدق.

المعنى الثالث النظر إلى وجه الله الكريم وهذا فيما أعلم هو الأجر العظيم ، لأن الله سبحانه أخبرنا أنه وعد القاعدين بالحسنى ، وبينت لك أن الحسنى هي المغفرة والجنة ، فما بقى من الأجر العظيم إلا ما قررته لك والله تعالى يقول "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" فالحسنى ثبتت للقاعدين فما بقى إلا الزيادة وهى النظر إلى وجه الله الكريم كما قال ع "بتجلي لنا ربنا ضاحكا" وهذا الحديث بسند الإمام أبى طالب المكي.

قوله تعالى : [دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] (96).

قوله تعالى فى هذه الآية [دَرَجَاتٍ مِنْهُ] بعد قوله فى الآية السابقة [أَجْرًا عَظِيمًا] يعنى أن هذا الأجر العظيم الذى يتفضل الله به على المجاهدين بأموالهم وأنفسهم هو درجات فوق درجات فقد تكون الرضوان ، أو مقعد صدق ، أو النظر إلى وجهه الكريم بعد المغفرة والرحمة.

قوله تعالى [وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] أى يستر ذنوب المذنبين الذين ختموا أعمالهم بالشهادة فى سبيل الله ، ويرحمهم بقدر تعظيمهم لأوامر الله ومسارعتهم إلى بذل الأموال ، والأرواح فى سبيله ، والمغفرة فى الستر ومن فهم أن المغفرة تمحو الذنوب جهل لأن الحقائق ثابتة فى علم الله لا تمحى، ولكنه يسترها حتى عن الملائكة وعن الشخص المذنب وعن معالمه فى الأرض ، قال ع : "إذا تاب العبد أنسى الله الحفظه ذنوبه وأنسى كذلك جوارحه ومعالمه من الأرض فيلقى الله وليس عليه شاهد بذنوب.

قوله تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا](97).

وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من قريش كانوا أسلموا ، ولما أن أراد رسول الله ﷺ الهجرة قالوا يا رسول الله أنا ضعفاء لا نطيق الهجرة ، فلما أن كانت واقعة بدر قال كفار قريش من لم يخرج معنا لقتال محمد هدمنا بيته وأذينا ، والمسلمون كانوا إذا ذاك يسترون أنفسهم بالإسلام فخرج قوم من المسلمين مع قريش ، فلما حضروا بدرا قتل منهم طائفة كثيرة وأسر منهم كثيرون فأنزل الله هذه الآية الشريفة ، فلما نزلت هذه الآية أرسل بعض المهاجرين إلى أقاربهم وأحبابهم ، وكان بمكة رجل مريض فقال لأولاده وأنى والحمد لله فى يسار يوصلني المدينة وزيادة وأنى لا أقيم بعد هذه الآية فى مكة فاحملوني إلى رسول الله ﷺ فحملوه مريضا فمات فى الطريق ، وأسرع إلى المدينة رجال كثيرون من الصحابة ، ومعنى الآية أن الذين توفاهم الملائكة أى تتوفاهم بيوم بدر وهم مع جيش المشركين حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة فى دار الكفر بعد أن جعل الله للإسلام معقلا بالمدينة ومأوى ، فنقول لهم الملائكة "فم كنتم" أى فى أى شئ كنتم ، فيقولون "كنا مستضعفين فى الأرض ، فنقول الملائكة "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" أى أن الواجب على المستضعف فى أرض العدو المقهور على أن لا يعامل معاملة الإنسان الحر فى وطنه ، وجب عليه أن يهاجر فى بلاد غيرها خصوصا إذا كان للإسلام معقلا حصينا ، فكيف بمن ترك الهجرة وخرج مع العدو ليقاتل رسول الله ﷺ فتقتله الملائكة التى أمد الله بها رسوله ﷺ يوم بدر ، ويكون جزاء هؤلاء ما أخبرنا الله به عنهم من قوله.

[فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا] فأولئك الإشارة راجعة إلى من تركوا الهجرة وخرجوا مع مشركي قريش لحرب رسول الله ، مأواه أى محلهم الذى يأوون إليه ، جهنم أى عذابها وساءت مرجعا ومآلا .

قوله تعالى : [إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا](98).

استثني الله من هذا الحكم من كان ضعفه حقيقيا ، بأن ضعف عن أن يحتال للهجرة فصعب عليه الخروج ، وصعبت عليه النفقة والراحلة والزاد فأقام فى دار الكفر كارها للإقامة متمنيا الهجرة ، فهؤلاء يثيبهم الله تعالى بقدر نواياهم ، قال بسند الإمام أبى حنيفة "إنما العمل بالنية" وبسند غيره "إنما الأعمال بالنيات" وذكر الله المستضعفين فذكر الرجال والنساء والولدان ، فعينت تلك الآية أن الهجرة كما تجب على الرجل تجب على المرأة وعلى الولد الذى يعقل "ولا يهتدون سبيلا" أى طريقا يصلون به إلى المدينة.

قوله تعالى : [فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا](99).

عسى هنا معلومة بمعنى اللام وليست بمعنى الترجى كما قدمت لك ، فتكون المغفرة من الله تعالى وعدا حقا أن شاء الله "وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا" العفو من الله قد يسبقه سؤال ، والمغفرة منه سبحانه لا يسبقها سؤال ، أسأل الله أن يمن علينا بالعفو والمغفرة وأن يجعل حسابنا حسابا يسيرا .

قوله تعالى : [وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا](100).

هذه الجملة شرطية يرغب الله تعالى في الهجرة من دار الحرب التي إذا أقام فيها المسلم قهر على أن لا يؤدي فيها شعائر دينه ولا أن يظهر بإسلامه، حثنا سبحانه على الهجرة من تلك الدار ، دار الذل دنيا ودينا إلى أرض بها الإسلام ظاهر ، وجعل سبحانه جواب الشرط وعدا منه سبحانه لمن يهاجر فإنه إذا هاجر من دار الذل والهوان يجد بعد هجرته من الخير والوسعة ما برغم أنف عدوه من حسدهم على النعمة التي نالها ، أو يجد أعداءه الذين كانوا يذلونه في دار الحرب ويسحدونه على ما تفضل الله به عليه من الخير والوسعة ، فتكون أنوفهم مرغومة أى فوق التراب كناية عن الذل ، وهذا وعد من الله صادق وبشرى منه سبحانه لمن يهاجرون في سبيل الله.

[وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ] فأدركه الموت بالتنعيم كما أخبرنا سبحانه بقوله "ثم يدركه الموت فقد وقع أجره" يعنى جزاءه على مسارحته إلى الهجرة بعد سماع الآية المتقدمة وهو في مكة ، وهذا فضل من الله العظيم لأنه سبحانه إنما يعامل عباده بقدر نواياهم لا بقدر نجاحهم في مقاصدهم.

وهذه الآية تدل على أن من أقبل على عمل الله تعالى ليلبغ غايته فأدركه الموت قبل بلوغ الغاية كما الله له أجر المدرك للغاية فضلا منه وإحسانا ، وعلى ذلك فيكون معنى قوله : "أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا" يكون إحسان العمل النية ، لأن أعمال الجوارح من غير أن تعمل القلوب لا يقبلها الله تعالى ، ومن عمل بجوارحه ولم يعمل بقلبه فهو منافق.

[فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ] أى ثبت أجره على الله فضلا منه وإحسانا لا وجوبا ، لأن معنى على تفيد الوجوب ، والله تعالى يخاطب أهل المعرفة به وفي قوله تعالى "على الله" بشرى للمهاجرين بل وللمسافرين في طلب غرض أو عمل فرضه الله تعالى كالحج والنفقة على الأولاد وطلب العلم والجهاد المبين شرعا وغير ذلك من البر والصلة والتعاون على المسلمين في مصالحهم [وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى : [وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا](101).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه بين لنا في الآيات السابقة أحكام الجهاد ، ولما كان المجاهدون من أكمل أهل الإيمان كان لا يشغلهم شأن الجهاد في سبيل الله عن شأن العبادة ، تفضل الله علينا فرخص لنا أن نقصر في الصلاة إذا ضربنا في سبيل الله ، ، والضرب في سبيل الله هو السفر والجهاد خاصة ، ولهذا السبب ذكر تلك الآية بعد بيان أحكام الجهاد، فقال سبحانه.

[وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ] يعنى أن الله يبين لنا حكم إذا ضربنا في الأرض أن نقصر الصلاة ، وفي قوله تعالى أن تقصروا من الصلاة يعنى من صلاة اليوم المفروضة بأن الذى يقصر منها هو الظهر والعصر والعشاء فقط فمن هنا للتبويض ، وقد روى تقصروا - وتقصروا- وهذه من حيث اللغة ، أما الرواية فيقال قصر يقصر من باب نصر.

وقد قال بعض العلماء أن هذه الآية نزلت في صلاة الخوف ، وبين ذلك بأن يترك الرجل القراءة والركوع والسجود إلا بالإيماء ويمشى في الصلاة ويتلف في مناسبات الجهاد وذلك لا يكون إلا في الملحمة.

والحقيقة أن قصر الصلاة شيء وصلاة الخوف شيء آخر ، فإن قصر الصلاة رخصة السفر مطلقا في جهاد أو في غيره ، وأما صلاة الخوف فأنما أمر الله بها في الجهاد فقط.

[إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا] أى أن ظننتم وقوع فتنة الذين كفروا ، وتلك الفتنة كوقوع المحن والبلايا وظهور تربصهم بكمين أو غيره ، وفى قوله تعالى [أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ] وأن فهم بعض أن تقللوا القراءة والركوع والسجود ، ولكن الذى أفهمه من قصر الصلاة هنا نقص الركعات ، لأن الصلاة الشرعية إنما سميت صلاة لكمال هيئتها من جهة عدد الركعات وغيره ، وقد رفع الله عنا الحرج فظهر أن القصر ليس فرضا بدليل أن رسول الله ﷺ لما خرج معتمرا صام وأفطر في الطريق ، وأتم وقصر في الصلاة فقالت له عائشة يا رسول الله رأيتك تصوم وتفطر وتقص وتتم ، فقال أحسنت يا عائشة وأرى قوله ﷺ "أحسنت" بيان لاحتياطها للسنة ، فإن تلك الملاحظة أن لم تلاحظها لم تتبين لنا السنة ، وكان لذلك بعض أفراد الصحابة يصوم ويفطر ويتم ، وقال بعضهم لا حرج أن تكون فرضا.

والسعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج لأن أركان الحج أربعة : - نية وهى الإحلال ، وإحرام ، وطواف ، وسعى ، فثبت أن السعى فريضة والله يقول "لا جناح عليه أن يطوف بهما".

وقصر الصلاة إشارة إلى قصر السفر ن وفى قوله "أن خفتهم" إشارة إلى صلاة الخوف ، فقد لا يوجد الخوف ويوجد قصر الصلاة إلى ما كانت عليه فى أول الأمر ، حيث كان الصبح ركعتين ، والظهر ركعتين ، والعصر ركعتين ، والعشاء ركعتين ما بقى الله الفريضة على ما هى عليه فى السفر ، وزاد عليها فى الحضر اثنتين والصبح والمغرب لا تقصران ، أما صلاة الخوف فإن كانت الفريضة ثنائية فإن الجيش ينقسم قسمان ، قسم يقف أمام العدو وقسم يصلى مع الإمام ركعة ، ثم يطيل الإمام القراءة ويصلى القوم قبل الركعة الثانية أفذاذا ⁽¹⁾ ويسلمون ، ثم يسرعون إلى الوقوف أمام العدو فيصرف الآخرون فيدركون الإمام فيصلون بهم الركعة الثانية ويتمون هم بعد سلامه ، وأن كانت الصلاة رباعية صلوا مع الإمام ركعتين ، فإذا وقف الإمام أطل الصلاة وأتموا صلاتهم الرباعية أفذاذا ويسلمون ويقفون موقف إخوانهم ، ويأتى إخوانهم فيصلون مع الإمام الركعتين الباقيتين ويسلمون وينصرفون إلى مواقعهم.

أما إذا حصلت الملحمة فيصلى الواحد على ظهر جواده أو واقفا ويمشى وقت الصلاة ، وتكون صلاته بالإيماء من غير ركوع ولا سجود تأمين ويخفف القراءة.

[إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا] أى المكذبين ببعثه محمد ﷺ أعداء لكم فى دينكم عداوة كيده ظاهرة يتربصون بكم الدوائر.

قوله تعالى : [وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ

(1) أفذاذا : صلاة فردية "أى أفرادا".

وَأَسْلَحَتْهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [102].

ومعنى الآية أن الله يأمر قائد الجيش بما أمر به رسول الله ﷺ ، بأن يقوم للصلاة وتقوم طائفة من المجاهدين وراءه يصلى بهم والجماعة خلفه فليكن إخوانهم وقوف إمام العدو من ورائهم ، وليأخذوا أسلحتهم معهم فى الصلاة كالسيف فى جرابه والخنجر ، ولا يحمل الرماح إلا من كانوا على أطراف الصفوف خشية من أذية المصلين ، فإذا سجدوا أو قعدوا للتشهد فى الثنائية أو فى الرباعية فيكونوا إخوانهم من ورائهم يحفظون ظهورهم فى الميدان.

[وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى] أى بعد سلام الطائفة الأولى وانصرفهم إلى الميدان يأت الذين لم يصلوا وراء الإمام فيدركوه واقفا فيصلون معه ركعة فى الثنائية واثنين فى الرباعية ، فإذا سلم الإمام أتموا صلاتهم وانصرفوا إلى الميدان.

[وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ] فى هذه الآية أمر بأخذ الحذر ولم يأمر به فى الآية الأولى ، وسبب ذلك أن الأعداء لما رأوهم وقوفا يصلون لم يظنوا أنهم فى صلاة حتى أتموها ، فقالوا ننتهز الفرصة عند صلاتهم فنستأصلهم وهم فى الصلاة ، فأمرهم الله بأخذ الحذر من الأعداء فى الصلاة المستقبلية بعد الصلاة الأولى ، وهذا الحكم واجب فى صلاة الخوف مطلقا بعد رسول الله ﷺ ، فإنه يتعين على من وقف لصلاة الخوف أن يكون على حذر من أعداء الله ، وهنا ظن بعض المعتزلة أن الإنسان يخلق أعماله الاختيارية بدليل قوله "وليأخذوا حذرهم" والحقيقة أن الله يأمر من شاء بما شاء ويقدر إعاقته عليه ، وهو الفاعل سبحانه وهو الأمر جل جلاله ، وأمره قد يتحد بإرادة عند أهل صفوته ، وقد اتحد بالإرادة عند من سبقت لهم منه السوءى ، وكل آية فى كتاب الله من أمر أو نهى إنما هى بيان لحجة الله على خلقه ، وأن العالم يجب أن يكشف الغطاء عن حقيقة التوحيد ، والأمر والنهى ما يحبه الله من عباده فقد يقدره وقد لا يقدره ، قال تعالى [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ]⁽¹⁾ وأن تأولها بعض المعتزلة وأماكن عملكم . وهذا تكلف يدل على أن قائله يجهل روح القرآن ، منحنا الله العلم النافع والفقه فى دينه.

[وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً] بين الله لنا عداوة أهل الكفر به سبحانه وشدة حرصهم على الانتقام منا ، بانتهازهم فرصة غفلتنا عن أمتعتنا وأسلحتنا فيسلبونها ، فلنحتاط منهم بما فى وسعنا من يقظة ورعاية "ويميلون" أى يهجمون عليكم بخيلهم ورجلهم فى سلب ما بأيديكم من الذخيرة والسلاح.

[وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ] يخفف عنا الله تعالى فيرفع عنا الحرج الذى أنالنا من حمل السلاح إذا كان بنا أذى من مطر ، أو ما يشبهه كالزوابع ومثار التراب ، أو فى الارتقاء على هضبة ، أو النزول من منخفض لأن ذلك ما لا يطيقه الإنسان ، وفى المطر وأمثاله يكون العدو واقعا فيما فيه المجاهدون من الأذى ، فيشغله ذلك على الميل على المؤمنين ، أو حصل المرض للمجاهدين فإن الله يرفع عنهم الحرج لضعفهم عن حمل السلاح ويتولى سبحانه أمورهم فيدفع عنهم الأعداء بما شاء فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ومتى ضعف المؤمن عن القيام بالواجب لمرض تولاها الله.

(1) سورة الصافات : 96.

[خُذُوا حِذْرَكُمْ] المخاطب بهذا الأمر هم الأقوياء والأصحاء بخلاف المرضى الذين لا يطيقون أن يحتاطوا لأنفسهم.

[إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا] أى أن الله هيا لهم آلاما تهينهم فى الدنيا والآخرة لشدة وقعها حتى تجعل الواحد منهم يتمنى أن يكون ترابا وذلك فى الدنيا والآخرة ، ما من فئة تخرج جهادا فى سبيل الله لا يخرجها إلا إعلاء كلمة الله وتجديد سنة رسول الله ﷺ إلا أيدها الله ونصرها ، قال تعالى : [إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ]⁽¹⁾ مهما استشهد منها من رجال فإن ذلك نصر أيضا ، لأن الشهيد فاز برضوان الله فى جوار الله تعالى وهو خير النصر لشخصه.

قوله تعالى : [فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا](103).

أى فإذا كنتم ممن يحافظوا على الصلوات الخمس فى أوقاتها بشروطها وآدابها واقتضى الوقت صلاة الخوف فصلوها قِيَامًا أن كان يمكنكم الصلاة قِيَامًا ، وقعودا أن اقتضى الأمر ذلك ، وعلى جنوبكم وقت الجراح والمرض محافظة على الصلوات الخمس لأنكم جبلتم على تأديتها فى أوقاتها، وحيث الأمر كذلك فالله يرخص لكم أن تحافظوا عليها فى كل حال من الأحوال. وجائز أن يكون معنى الآية إذا قضيت الصلاة وأنتم تجاه العدو فإنني قد أبحت لكم أن تذكروا الله قِيَامًا وقعودا وعلى جنوبكم بحسب مقتضيات الحال الداعية ، ويكون معنى "فاذكروا الله" أى فصلوا.

وجائز أن تكون المعنى فإذا قضيت صلاة الخوف وأنتم فى الملحمة فاذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم بما تستنزلون به معونته على عدوكم ، أى من الذى يقوم عنهم وكيلا فيتولى الدفاع عنهم أمام الحكم العدل الخبير البصير.

قوله تعالى : [وَلَا تَهْنُؤْا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا](104).

ولما كانت الصلاة صلة بين العبد وربّه ، والذكر نور يكشف الحجب عن جمال المذكور ، فيشتاق العبد الذاكر للقاء الله تعالى ويفر إليه مجاهدا شاهدا مهما لحقه من الإهانة ، ناسب أن يضع الله هذه الآية بعد آية الصلاة والذكر ، قال سبحانه.

[وَلَا تَهْنُؤْا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ] أى ولا تضعف هميتكم الإهانة التى نالتكم فى الجهاد عن طلب القوم وقتالهم [إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ] أى أن يكن عندكم ألم من التعب أو الجراح من القتال ، فإن الأعداء عندهم ألم مثلكم.

[وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ] أى وعندكم رجاء كبير فى فضل الله من النصر والثواب والرضا منه سبحانه ، والاستشهاد والمقامات العلية والجنات الأبدية فى الحياة الآخروية ، وهم لا رجاء لهم ولا ثواب من الله ولا عطاء.

[وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] أى وكان الله ولم يزل عليما بعباده ، وله فى كل أمر حكمة ، وفى كل شأن سر وفضل ، وهو الحكيم العليم الذى لا يأمر عباده بالجهاد إلا لمصلحتهم فى الدنيا والآخرة والجهاد بالنسبة إلى المجاهدين ينقسم إلى قسمين:

(1) سورة محمد : 7.

القسم الأول : يجاهد لنوال بغيته من غنائم أو شهرة أو رياسة أو ملك دنيوي.

والقسم الثاني: يجاهد ابتغاء مرضات الله تعالى ، ورجال القسمين تراهم فى صف واحد وميدان واحد يقاتلون عدوا واحدا ، ولا تميزهم إلا الشدائد ، ولا تظهر نواياهم إلا الآلام ، فبعد أن أهينوا فى القتال وأوذوا فى الجهاد وأصابتهم آلام الجراح لم يدعمهم الله ليستريحوا ، بل أمرهم وهم فى هذه الحالة بالآه يهنوا فى طلب الأعداء ، ثم لطف أمره ببث الأمل فى صدورهم بقوله سبحانه "أن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون" أى إذا كانت آلام أعداءكم وهم على الكفر والباطل لا تمنعهم عن القتال ، فكيف بكم وأنتم على الحق وغايتكم الله ربكم ن ورجاؤكم فيه عظيم ، وتؤمنون بأن جزاءه لكم كبير وخيره عظيم.

عند ذلك خرج مع النبي ﷺ صفوة القوم وقد ازدادوا إيمانا وبقينا وتميزوا عن غيرهم من ضعفاء الإيمان ، فمدحهم الله بوصفهم فى قوله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ] (1).

وبهذا أظهر الله تعالى لرسوله أهل الصدق والإخلاص الجديرين بحمل أمانة الرسالة وتبليغها إلى الناس ، فكان أمر الله تعالى بمثابة الاختبار والامتحان للتفريق بين الغث والسمين . ووضع قاعدة اختيار القادة الذين يعهد إليهم بتولى المناصب والوظائف ، فتخرج فى مدرسة الرسول ﷺ قادة البشرية ، وأساتذة الإنسانية ، الذين صار لهم الحق فى خلافة رسول الله ، ونشر رسالته إعلاء لدين الله ، بعد نجاحهم فى الامتحان الذى وضعه لهم ربهم الذى خلقهم وهو أعلم بهم كما قال تعالى : [أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] [وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ] (2).

قوله تعالى : [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَانِينِ خَصِيمًا] (105).

قوله تعالى : [وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا] (106).

قوله تعالى : [وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا] (107).

قوله تعالى : [يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا] (108).

قوله تعالى : [هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا] (109).

قوله تعالى : [وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا] (110).

قوله تعالى : [وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] (111).

(1) سورة آل عمران : 173.

(2) سورة العنكبوت : 2 - 3.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا](112).

قوله تعالى : [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا](113).

هذه تسع آيات بينات تبين لنا بعض أنواع النفوس المريضة بالخبث والنجاسة ، والتي جبلت على الشر وفطرت على الخيانة ، ذكرها الله تعالى بعد آية الامتحان ليظهر الخبيث من الطيب ، وليعلم المؤمنون الصالح من الطالح فلا يخدعون بقول كاذب أو نبأ فاسق.

وسبب نزولها ما روى أن طعمة بن أبيرق سرق درعا وخبأها عند يهودى ، فوجدت عنده فرماه طعمة بها وأقسم أنه ما سرقها . فسأل قومه النبى ﷺ أن يجادل عنه ويبرئه ، فنزلت هذه الآيات.

قوله تعالى : [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ] أى أنا نحن : بصيغة العظمة والعزة – قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن بعد أن أنزلناه من سماء علمنا الأزلى مكتوبا فى سجل غيبنا [بِالْحَقِّ] وهو القول الذى لا شك فيه ولا تردد لباطل [لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ] أى لتفصل فى القضايا والخصومات التى تنشأ بين المتحاكمين إليك [بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ] أى بما أعلمك وأشهدك بنور فرقانه [وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا] أى ولا تجعل نفسك مخاصما ومدافعا عن أهل الخيانة والسرقة. والمراد هو طعمة بن أبيرق . [وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ] أى أسأله أن يغفر لك ما قلته لقتادة حين عرض عليك قضية عمه ، لأن النبى ﷺ كان قد قال له : "عمدت يا قتادة إلى أهل بيت ذكروا بإسلام وصلاح وترميمهم بالسرقة".

وقوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا] أى أن الله كان من الأزل إلى الأبد غفورا لكل أعمالك رحيمًا بك فى جميع شئونك.

قوله تعالى : [وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ] أى ولا تدافع عن أهل الخيانة الذين يسرقون من بيوت جيرانهم ، وقد أمروا بالمحافظة عليها ن ويسيئون إلى إخوانهم بالخيانة فيكونون كأنهم يخونون أنفسهم [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا] أى أن الله تعالى يبعد عن دائرة رحمته ويبغض من خان جيرانه وأساء إلى إخوانه وظل مصرا على الخيانة فلا يرجع عن المعاصى ولا يندم على أثم ولا يتوب من ذنب.

قوله تعالى : [يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ] يقصد طعمة بن أبيرق أو أخيه بشير على مقتضى الروايات هو وقومه يخفون أمرهم ويجادلون ليستروا أثمهم عن الناس [وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ] مطلع على باطنهم وظاهرهم وسرهم وجهرهم لأنه سبحانه معهم فى خلوتهم وجلوتهم.

[إِذْ يَبْيُثُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ] أى أنهم كانوا يتآمرون ليلا فى مجالسهم الخاصة يعدون الأقوال التى بها يتهمون غيرهم بالسرقة ويحاولون إثبات ذلك حتى يبرؤن أنفسهم.

[وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا] أى وكان ولم يزل يحيط بهم وبأعمالهم كما يحيط بغيرهم.

قوله تعالى : [هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ] خطاب موجه إلى أهل أبيرق وكل من شهد لصالحهم [جَادَلْتُمْ] عن السارقين منكم ودافعتم عنهم في الحياة الدنيا أى الحياة الفانية وقت التهمة وهو زمن قليل لا قيمة له.

[فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] أي فمن يستطيع أن يدافع جدالا بالباطل عن الخائن يوم الحساب ، يوم القيامة بين يدي الله ، وحوادث المجرمون ظاهرة بصورها متكلمة بها جلودهم وأيديهم وأرجلهم ، فتصير مكشوفة للعيان يراها كل إنسان.

وقوله تعالى : [أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا] أي من الذى سيتعرض يوم الفرع الأكبر للدفاع عن هؤلاء الخاسرون في قضيتهم الخاسرة ، فيقيم نفسه وكيلا يجادل الله عن مثل هؤلاء الخونة الكاذبين السارقين ، فكل أمرئ يومئذ مشغول بذنبه ذليلا بين يدي ربه.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا] أي أن باب التوبة مفتوح على مصراعية أمام كل من يرتكب ذنبا أو إثما أو يسيئ إلى غيره أو يظلم نفسه بأن يوقعها في السرقة والإجرام وارتكاب الفواحش والمنكرات ثم يعود إلى ربه تائبا مستغفرا نادما سائلا الله تعالى العفو والمغفرة يجد الله تعالى غفورا ، يغفر الذنوب جميعا في الحياة الدنيا رحمة منه سبحانه بعبادة التائبين.

وعلامة ذلك أن يشرح الله صدر من تاب إليه وأناب . فيوفقه إلى الصلاح والإصلاح ومحبة الصالحين ، حتى يحشر في زمرة يوم الدين.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] بمعنى أن من يرتكب ذنبا فهو على عاتقه ، مكتوبا في صحيفته مرسوما على جوهر نفسه ، ناطقا به جلده يوم القيامة ، محاسبا عليه معذبا بمقتضاه إذا لم يبادر إلى التوبة إلى مولاه جل علاه قبل أن يلقاه ، فالله تعالى كان ولم يزل مطالعا عليما بخفايا عبادته حكيما في قضائه وقدره عادلا في إرادته.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا] أي ومن يعمل ذنبا صغيرا أو يرتكب إثما كبيرا ثم يتهم بفعله رجلا بريئا لم يفعله فقد احتمل فوق ذنبه أو إثمه الأول بهتاناً وكذبا ولعنة من الله ورسوله في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى : [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ] أي ولولا عناية الله بك وولايته لك وفضله المتوال عليك لنجحت طائفة من القوم في ما همت به من تحويلك عن القضاء بالحق بين المتخاصمين ، ولكن الله يعصمك ويحفظك من خداع هؤلاء الخائنين.

[وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِؤُنَكَ مِنْ شَيْءٍ] أي وما يقع في البهتان، ويقع في الزور والخسران سواهم . والضرر واقع بهم في الدنيا والآخرة لأنهم لا يستطيعون بك ضرا ولا شرا من أى جانب لأنك بأعيننا وفي رحمتنا.

[وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ] الذي هو كلامه المكتوب في سجل الغيب قبل أن يخلق الأرض ومن عليها [وَالْحِكْمَةَ] في فهم كل شئ على حقيقته مهما أخفوه المخادعون ، ووضع كلا شئ في موضعه الذى يرضاه الله ويحبه ، وإدراك مراده سبحانه من كل أمر وحكم وشرع أنزله.

[وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ] وخصك بعلم الغيب الذى لم يسبق لك علمه، وزادك علما فوق علم ، وكشف لك غيبا بعد غيب ، لأنك سدرة منتهى علوم الخلائق بدءا وختما.

[وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا] أي وكان من الأزل والبدء الأول فضل الله ونعمته ، وعطاءه ورحمته عليك روحا في البداية وجسما في النهاية فضل كبير وعظيم لا يقدره حق قدره إلا من تفضل عليك به وهو رب العالمين ، عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى.

وهنا أكشف لك عن بعض الأسرار المنطوية طى كلمات تلك الآيات التسعة.

أولاً : سر إنزال الكتاب في قوله العزيز الحكيم سبحانه : [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ] وهو سر لا يزال مجهولاً لم يكشف كنهه ، وغيباً مصوناً لم تعرف حقيقته ، وكل ما نعلمه أن الإنزال كان من سماع الأسماء والصفات إلى نور التجليات ، ثم إلى مظاهر الآيات في كافة المخلوقات ، ثم إلى رموز الحروف والكلمات.

ثانياً : مقام كشف دخائل النفوس ورؤية الصواب من الخطأ المشار إليه في قوله سبحانه [لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ] وفي رؤية بعين البصيرة لا بعين البصر ، والبصيرة عين نورانية ترى الحق حقاً والباطل باطلاً ، ولا يمكن أن ترى العكس ، لأن ذى البصيرة بدل الله سمعه وبصره فصار سميعاً بالسميع وبصيراً بالبصير سبحانه سر قوله جل شأنه : [أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ].

ثالثاً : سر مجادلته ومحاولته مساعدة الخائنين ، فذلك راجع إلى شدة رافته ورحمته صلوات الله عليه بالناس كافة ، فكان يجتهد كل الاجتهاد في مداراتهم تأليفاً لقلوبهم وعطفاً عليهم ورأفة بهم ، لعلهم يهتدون ويتوبون ويبادرون إلى الإصلاح والإصلاح ، ولكن الله العليم الخبير بعباده يأمر حبيبه ومصطفاه بكشف سترهم مع استعمال الشدة معهم ، والغلظة في الحكم عليهم تعليمنا لنا بأن بعض النفوس لا يصلحها سوى استعمال الشدة وأخذها بالقسوة.

رابعاً : سر أمر الله تعالى للنبي ﷺ بالاستغفار ، والاستغفار لا يكون إلا من الذنوب والعيوب ، والمصطفى معصوم منهما بحكم اصطفاؤه لحمل الرسالة وختم النبوة فيما هو سر قول الله تعالى لحبيبه ومصطفاه "واستغفر الله" واكشف عن سر ذلك في إيجاز شديد فأقول:

أن الذنوب أنواعها كثيرة ، وصفاتها عديدة ، فلكل مقام ذنوبه وسيئاته ، كما أن له درجاته وحسناته ، ومن هنا كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين ، لأنهم يرون أن ذنوب الطاعات أكبر وأخطر من ذنوب المعاصي والغفلات ، ورائدهم في ذلك الرسول الأمين الذي كان ﷺ يستغفر في المجلس الواحد سبعين مرة ، ومجال استغفاره واضح في سورة النصر وقد شرحت ذلك بالتفصيل في كتاب معارج المرقبين فارجع إليه أن أردت المزيد.

خامساً : سر نهى الله تعالى لرسوله وخاتم أنبيائه – صلوات الله عليهم جميعاً – عن المجادلة لصالح الخائنين الذين يختانون أنفسهم ، فسر ذلك أن النهي لنا في حقيقة الأمر ، وإشارة واضحة إلى سبق علم الله بما سيكون عليه نظام القضاء في بلاد المسلمين بعد استضعافهم بالكافرين والمنافقين ، كما أن هذا النهي حجة على جميع المحامين الذين يدافعون عن المجرمين والخائنين ، وأن هذه الآية القرآنية ستظل معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة تشهد بفساد قانون العقوبات الوضعي وغيره من القوانين التي لم تأخذ بما أنزله الله.

سادساً : مقام المراقبة الذي يكشف عن دوام واستمرار مراقبة العبد لمعية الرب ، وسر القرب الإلهي من العبد في كل لحظة من أنفاسه في تفارقه مراقبة ربه في جميع أقواله وأعماله وأحواله ، فيستحي خجلاً من الله تعالى لعلمه أنه معه أينما كان ، أما العبد الذي يختفي من الناس ويستتر منهم أن يطلعوا على ذنوبه وعيوبه ، ولا يستحي من الله فهو عبد ناقص الإيمان ، وغافل

عن مراقبة الواحد الديان وينطبق عليه معنى الآية [يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ] ومن غفل عن مراقبة الله في السر قبل العلانية نقص إيمانه وزال عنه مقامه ، ونعوذ بالله من الحرمان بعد العطاء.

قوله تعالى : [لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] (114).

قوله تعالى : [وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا] (115).

بعد أن بين الله أعمال المنافقين ، وأحوال المجرمين ومناجاتهم في نواديهم وما يبيتون ن الشر في مجالسهم ، أراد جل جلاله أن يبين مجالس أهل الخير ونجوى الخير فقال : "لا خير في كثير من نجواهم" أى لا يوجد الخير في الكثرة من الناس ولا فى أحاديثهم ولا فى نجواهم.

وقوله تعالى : [إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ] أى استثناء لمن حث على صدقة ، أو نفقة في خير ، أو كلمة معروف فى مصلحة دنيوية ، أو تحدث فى مسألة دينية ، أو إصلاح بين متخاصمين.

[وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ] لا لعلة أو غرض من ظهور أو شهرة أو مكانة بين الناس وإنما يقصد وجه الله.

[فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] وعطاء الله للعبد عطاء عظيم من غير عمل على الإطلاق ، وإنما المراد هو عطاء الآخرة لأن الثواب فيها لا حدود له ولا نهاية لقدره ، وعطاء الدنيا مهما عظم فهو موقوت ومشوب بالكدر والفناء.

قوله تعالى : [وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى] هذه الآية مرتبطة بالآيات العشرة السابقة ، وسبق أن بينت لك أن سبب نزولها هو حادث بنى أبيرق ، وذهاب بشير بن أبيرق إلى مكة غاضبا من حكم رسول الله ﷺ بالحق . وبهذا يكون معنى الآية أن من يخالف رسول الله ويرتد عن الإسلام "ويتبع غير سبيل المؤمنين" عائدا إلى الطريق المعوج وينضم إلى الأعداء فيعمل عملهم ويقول قولهم "نوله ما تولى" أى نعيه فيما ذهب إليه، ونمده فيما تولى ، ونعطيهِ من الدنيا بقدر ما نشاء "ونصله جهنم" فى الآخرة خالدا فيها أبد الأبدى مع الملعونين "وساءت مصيرا" وهل هناك أسوأ من هذا عقابا ، وأدنى من هذه إقامة ، وأحط من ذلك مصيرا ، نعوذ بالله من غضب الله ونسأله الحفظ والسلامة فى الدنيا ويوم الدين.

وفى هاتين الآيتين أسرار كثيرة لا يسعنا المجال لشرحها بالتفصيل ويمكن الإشارة إليها على أن الله تعالى جمع الخير كله فى ثلاث كلمات من الآية الأولى ، وجمع الشر كله فى كلمتين من الآية الثانية ، وبذلك توضح الآية كمال الخير ، وقمة الشر.

فالثلاث كلمات فى هذه الآية هى بالترتيب الآتى الصدقة . والمعروف . والإصلاح . والموقفين الجامعين للشر كله هما . مخالفة الرسول . وإتباع أهل الضلال . وبين لنا أن كمال الخير هو الثواب بالأجر العظيم يوم الخلود فى دار النعيم. كما بين أن قمة الشر عقابه عظيم يوم الخلود فى نار الجحيم.

فالصدقة جماعها بذل المال فى وجوه الخير ابتغاء مرضيات الله ، والصدق فى القول ، وتعلم العلم النافع ، وحسن الخلق مع الأصدقاء والأعداء . والتعاون على البر والتقوى.

فمن ألبسه الله حلة التصديق بما أعطاه ، لاحت عليه أنوار أسماء الحق وأحبه الله ، لأن الله يحب من خلقه من كان على خلقه ، ومن أحبه الله تحقق حق يقين بقول رب العالمين [فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] ورأي بعين رأسه عظمة هذا الأجر وهو لا يزال فى الحياة الدنيا.

وأعلم يا أخى أكرمك الله أن الأمر بالمعروف صدقة . والإصلاح بين الناس صدقة ، أعاننا الله على أنفسنا حتى نلزمها بالصدقات فى كل حركاتنا أنه نعم الموفق والمعين.

وأما من خالف الرسول وشق عصا الطاعة وفارق الجماعة ، وخرج من حصن الهداية إلى ببداء الضلالة والغواية ، فيكون قد أضاع الأصول التى أتانا بها الرسول ع . فجذبه الشيطان إلى ضرب أهل الأثم والعدوان ، فغضب عليه ربه ، وجعل جهنم مصيره . وتجلّى الله عليه بأسماء الجلال . فصار محلا للكمال فى دار الوبال التى أعدها الله لظهور غضبه ومقته للكافرين والظالمين والضالين والمنافقين . وجميع المجرمين من الغافلين.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا خزائين خير وجمال حتى ننال الخير العظيم فى الدنيا ويوم الدين. قوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا](116).

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى طريق الخير وطريق الشر بالإجمال ، ناسب أن يفصل ما أجمل ، ويوضح ما أبهم ، ويشرح طريق غير المؤمنين الذى أشار إليه فى الآية السابقة.

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ] أى أن الله سبحانه لا يتجاوز عن ذنب من كفروا واتخذوا لله شريكا من أنس أو جن أو جماد أو حيوان أو شمس أو قمر أو كوكب أو غير ذلك من المخلوقات.

وهناك إشارة بالنسبة لعدم المغفرة للمشركين ، وذلك لأن الغفران معناه ستر الذنوب بغيرها ، أو محوها وتبديلها بحسنات ، أو العفو عنها بالفضل والإحسان – والمعاصى نجاسات فرعية تتطهر بغيرها من المطهرات – ولكن الشرك بالله لا يستتر بسواه ، ولا يمحوه الله ولا يبدله إلا بقولهم : "لا إله إلا الله" وهم لم يقولوها ولم يعترفوا بالغفور الرحيم حتى يعفو ويغفر ، ولا بالرحمن حتى يرحمهم.

والشرك نجاسة أصلية لا تطهر بأى شئ من الحقائق الملكية أو الملكوتية ، ولذلك تب الله على المشركين الخلود فى نار الجحيم لأنه قدر على كل النجاسات أن تحرم من روضات الجنات . قال تعالى : [إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ] (1) . وقال فى المعاصى والذنوب [إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا] (2).

"وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" أى ويعفو ويصفح ويسامح فى الذنوب التى هى غير الشرك لمن يريد من عباده ، والله لا يغفر الذنوب ولا يتوب على من ارتكب الشرك وأخذ لله شريكا فى الألوهية ، ويغفر الذنوب والخطايا والسيئات لمن يشاء من المؤمنين والمؤمنات.

[وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا] أى ومن يتخذ الله شريكا أو ولد أو زوجة أو معينا فقد ذل وضل وتاه فى ببداء الجهالة وبعد عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا.

قوله تعالى : [إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا](117).

(1) سورة التوبة : 28.

(2) سورة الأحزاب : 33.

[إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا] أى أن الكفار قد اتخذوا غير الله آلهة وسموهم بأسماء الإناث مثل : - اللات والعزى ومناة - ويدعون أنهم آلهة ويعبدونهم من دون الله ، ومن يتخذ شريكا لله أو يعبد سواه فقد ضل ضلالا لا آخ له ولا نهاية لبعده ، لأن المشركين لا يدعون ولا يعبدون إلا أصناما يسمونها بتسمية الإناث كاللات والعزى ومناة.

هنا إشارة فى أن أصل فى الوجود الذكورة والأصل فى فى فروع الأنوثة ، فترى أن أهل الإنسان ذكر وهو آدم عليه السلام ، وفرع الإنسان أنثى وهى حواء ، وأصل الجن إبليس وفروعه الشياطين ، وأصل كل شئ الماء وهو ذكر.

والله يخاطب الكفار بخطاب فيه نهاية البساطة وكأنه يقول لهم - أن عقولكم قد فسدت وأفكاركم قد كسرت حتى تتخذون فروعكم آلهة وتجعلون لها مسميات الإناث - والإناث كانت عند الجاهلية فى نهاية الحقارة بحيث لو وصف بها رجل نطيره لقامت بينهما حربا عوان ، ونحن نرى أثرها فى المجتمعات للآن ، فإذا قال رجل لآخر : "إنك امرأة" قامت القيامة ووقع ما لا يحمل عقابه ، والله يؤنب المشركين ويقول لهم أن ذوق الإنسانية قد فقد منكم حتى تشركوا وتسموا أربابكم بتسمية النساء.

[وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا] أى أن كفار قريش ما عبدوا الأصنام حقيقة ، ولكنهم عبدوا الشيطان الخارج عن طاعة الرحمن ، والذي لعنه الله وطرده وأبعده عن رحمته.

قوله تعالى : [لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا] (118).

قوله تعالى : [وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا] (119).

أى طرده وأبعده عن رحمته ، فقال لربه أنى سأعمل على ضلال كثيرا من عبادك وأتخذ منهم نصيبا كبيرا ، وقسما مقطوعا مبعدا ، مرفوضا لكفره وشركه.

[وَلَأُضِلَّنَّهُمْ] أى لأعملن بوسوستي وأكون سببا فى ضلالهم وشركهم [وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ] أى ولألقى فى قلوبهم الأمانى الخادعة وهى طول الأمل فى الحياة الدنيا ، وأنه لا بعث ولا حساب ولا عقاب.

[وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ] أى وأجعل أمرى لهم دينا باطلا يتخذون منه أمورا خيالية كقطع آذان الأنعام ، لأنه كان من عوائد الجاهلية أن الناقة إذا خصصت لنذر أو نحوه - مثل ولادتها عشر أبطن كلهن إناث - تركت سائبة قلم تركب ولم يشرب لبنها حتى تموت ، فإذا ماتت كلها الرجال والنساء جميعا.

"وبتكت" أى قطعوا أذن بنتها الأخيرة وتسمى "بحيرة" أى التى بحرت أذنها ، أى قطعت وتترك سائبة مثل أمها ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : [فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ].

[وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ] أى واضع لهم أمرا يغيرون به دين الله وشريعته وفطرته التى فطر الناس عليها ، وذلك بالكفر بدل الإيمان والضلالة بدل الهداية ، والفساد مكان الإصلاح ، والكبر مكان التواضع ، والتفرقة مكان الاتحاد ، والتبرج والتزين مكان الوقار والاحتشام.

[وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ] أى ومن يختار ويتبع دين الشيطان ويجعله طريقه ويتخذ الشيطان له آله ووليا.

[فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا] أى فقد الخير كله وخسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين الظاهر لكل عقل مستتير وقلب سليم.

قوله تعالى : [يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا](120).

[يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ] أى ويعدهم فى كل حالة بحالة وهمية مثلها ، ويمنيهم بكل أمنية تناسب عقولهم وعقائدهم الفاسدة.

[وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا] أى وكل وعود الشيطان التى بعد بها الإنسان ما هى إلا شر فى شر وضرر فى ضرر.

قوله تعالى : [أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا](121).

[أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ] أى وأن هؤلاء المتصفون بتلك الصفات ليس لهم مثنوى فى الآخرة إلا نار جهنم ولا يجدون ملجأ أو مقرا غيرها وما لهم عنها رحيل ، ومن يجعل الشيطان وليا وآلها له من دون الله فقد خسر كل سعادة ووقع فى كل شقاوة ، وهذا خسران واضح لكل عاقل ، لأن طريق الشيطان مبنى على الأمناني الباطلة والوعود الكاذبة ، والخيالات الفاسدة – وحزبه مآله الهلاك والبوار فى الدنيا ، وفى الآخرة مأواه جهنم وبئس القرار ، ولا يجد لنفسه منها فكاكا أو هربا أو فرارا ، وصدق الله حيث قال فى حقهم "ولا يجدون عنها محيصا".

قوله تعالى : [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا](122).

لما بين الله لنا طريق الشيطان ونهاية حزبه وأتباعه وأن عاقبتهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا ، ناسب أن يذكر مآل المؤمنين من ثواب فقال.

[وَالَّذِينَ آمَنُوا] أى والذين آمنوا وصدقوا بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر.

[وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ] أى وقاموا بعمل الإصلاح والصلاح لأنفسهم وأهلبيهم وكل ما يجب عليهم.

قوله [سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ] أى سنسكنهم وندخلهم فى بساتين وجنات ذات أنهار ومساكن تجرى من تحتها جداول الماء [خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا] أى أن ما نالوه من نعيم الجنات وخيراتها وسرورها وقصورها دائم بلا انتهاء.

[وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا] أى أن الله حق ووعدته حق وهو لا يخلف الميعاد.

[وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا] أى ومن فى الوجود أصدق من الله العليم القدير الذى إذا قال قولا

نفذه بمشيئته وقدرته ، فإذا قال للشئ كن فيكون ، ولا يوجد أحد مثله ولا قول مثل قوله فهو ليس كمثلته شئ.

والمقصود بهذه الآية أن الذين صدقوا الله وآمنوا بكتبه ورسله وقاموا بالإصلاح والصلاح

فأزوا بالفلاح والنجاح ، وسيدخلهم ربهم ويخلدهم فى جنات ذات أشجار وبساتين وتجرى من تحتها الأنهار . ماكتين فيها ما دامت الأرض والسموات ومخلدين فيها أبدا ، وهذا وعد العزيز الغفار والله لا يخلف الميعاد ، وهذه آية العطاء من العلي العظيم . فنسأل الله أن يدخلنا أعلى الدرجات أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : [لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا] (123).

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه بن أبي حاتم عن ابن عباس قال "قالت اليهود والنصارى لا يدخل الجنة غيرنا" وقالت قريش "أنا لن نبعث بعد وليس هناك آخره ولا جنة" فنزلت الآية.

[لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ] أى أن الجنة التى وصفها الله فى الآية السابقة وغير ذلك من العطاء الإلهي والفضل الرباني لا يعطي بالتمنى ولا بما يدور فى خيال الإنسان من الأماني ، ولا ينفع ما عند أى إنسان من الأماني مهما كان لونه ومهما كان دينه "مسلمًا أو يهوديًا أو نصرانيًا" إلا بطاعة الله ورسوله.

[مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ] أى أن مرجع كل إنسان إلى ما قدم من العمل ، فإن عمل ذنبًا أو ارتكب جرماً فعليه العقاب من الله تعالى جزاء ما فعل.

[وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا] أى لها يوجد فى الوجود غير الله يتولى العباد فيثيب من أحسن ويعاقب من أساء.

والمقصود من هذه الآية أن عطاء الله وفضله وجنته لا تطلب بالأماني الكاذبة والتمنيات الباطلة من أصل الأديان السابقة وغيرهم ، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، ولكن الله تعالى أوجد الأمور مرتبطة بأسبابها والأعمال جزائها فمن يقدم سوء من الأعمال يجد جزائه عند الله العقاب ، ولا يجد فى الوجود غير الله وليًا ومحاسبًا.

والأماني تكون على أقسام عدة : -

قسم يتمنى وهو جاهل بالأماني التى يتمناها ، كما تمنى أهل الكتاب بعثة النبي ع ، وهم يجهلون بعثته ويجهلون حالته.

وقسم يتمنى وهو عالم بأمنيته ولكنها الغرور الدنيوى من مال أو رياسة أو جاه ، وذلك ما وقع من أهل الكتاب الذين يعرفون النبي ع ويعرفون بعثته وصفه وحالته كما يعرفون أبناءهم.

وقسم يتمنى وهو متصف بالكسل تارك للعمل متكلاً على الفضل الإلهي بدون طاعة لله تعالى وهم الأغلبية الساحقة فى كل دين ، وأكثرهم من مدعى الانتساب والأولياء ، - وهم الذين أشار إليهم المصطفى ع بقوله الحكيم : "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" وهم الذين أشار إليهم القرآن بحادثتى ابن نوح وزوجة لوط ، ومن المسلمين من يقول أى منسب إلى الرسول أو متصل بنسب فلان الولي وأنى من صلبه ويتوهم أن ذنوبه جميعها مرفوعة ، وقد الجم الله الجميع بالبرهان الساطع والحجة الدامغة بقوله تعالى : [لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ] ومن ترك العلم أو عمل بغير اتصال بالله جل جلاله فلا يصل إلى خير من خيرات الملك ولا خيرات الملوك.

قوله تعالى : [وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] (124).

بهذا صار لنوال الفضل من الله تعالى شرطين أساسيين :
أولهما : العمل الصالح.

ثانيهما : الإيمان بالله . وهم مرتبطان ببعضهما ، - والعمل الصالح هو من صفات الحق جل جلاله فقد أصلح وأتقن كل شئ خلقه ووضعه على ناموس الصلاح وقانون الإصلاح ، كما أصلح الملكوت من أرواح وأنوار وأسرار وأوجد الجنة وما فيها من ما هو فوق العقل الإنساني والفهم البشرى والعلم الآدمي.

فمن ترك العمل بجسده وحواسه فقد انحط إلى أسفل سافلين وصار الحمار خير منه ، كما وأن العمل بغير إيمان واتصال بالحق جل جلاله ينزل الإنسان إلى دائرة الحيوان ، ومتى اتصل الإنسان بالرحمن اتصالا قلبيا اختاره الله كما اختار أنبيائه ورسله ، أو اتصل بالله بواسطة المتصلين به من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ثم علم بعملهم ، فقد صار مؤهلا ليكون خليفة الله في الأرض ، وأما من ترك العمل أو عمل بغير اتصال بالله جل جلاله أو بأمر منه فلا يصل إلى خير من خيرات الملك والملكوت.

قوله تعالى : [وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا](125).

بعد أن ذكر الله تعالى أهل الأمانى وعرف أن الأمانى لا تفيد ، وذكر أهل العمل الصالح وأن لهم الجنة جزاء عملهم وأنهم لا يظلمون نقيرا ، أراد أن يعرفنا جل جلاله أن كل مقام فى الدين فوقه مقام أرقى منه - فقال سبحانه.

[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا] أي ليس أحدا أعلى ولا أسمي فى الدين [مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ] أي من عبد فوض أمره إلى الله واستسلم لقضائه وقدره فى جميع أموره وشئونه كبيرها وصغيرها .
[وَهُوَ مُحْسِنٌ] أي وهو مشاهد لملكوت السموات والأرض ، يعبد الله وهو مراقب لعظمته كأنه يراه . سر قوله ع "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه" وهذا ما ذكر فى الحديث المشهور حين سأل جبريل رسول الله ع عن الإسلام والإيمان والإحسان.

[وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا] . أي وصار على منهاج الخليل إبراهيم من التسليم والرضا بالقضاء ، والدعوى إلى الله . سر قوله "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله" . وإتباع المناسك التى كانت لإبراهيم وهى نفس شريعتنا "واتخاذ الله إبراهيم خليلا" أي وأختار الله إبراهيم وإصطفاه وجعله فى مقام الخلوة ، حيث قد تخللت محبة الله فى ذات إبراهيم ، واستولت على كليته الظاهرة والباطنة ، حتى ألقى فى النار فلم يشعر بها وكانت عليه بردا وسلاما ، وألقى ولده إسماعيل وأمه فى صحراء جرداء ولم يتأثر ، وأمر بذبح ولده إسماعيل فى المنام فلم يتردد ونفذ أمر ربه وهو مستسلم للأمر .

ويقصد بهذه الآية الكريمة أنه ليس فى الوجود أقوى إيمانا ، ولا أعمالا ، ولا عقيدة ، ولا عبادة ولا تسليما ممن فوض أمره إلى الله فى كل شئ ، ووجه وجهه إلى مولاه ف كل شأن ، ومع تجمله بصفات المحسنين من نفقة ورحمة وشهود جمال الحق حيث ولي وجهه.

وهناك إشارة تستخلص من هذه الآية أن الدين الحنيف الذى ارتضاه الله لعباده المسلمين على مقامات كثيرة ، ودرجات عديدة بعضها فوق بعض ، وكل درجة من درجات الدين لن يتاح أن يرتقى إليها من لم يتحلى بالتقوى والتسليم لجناحه العلى.

ومن قال بأن ما أعطاه الله للخليل موقوف عليه فقد جهل بأسرار القرآن وعطاء كريم المنان ، وكيف لا والقرآن يثبت أن كل عطاء المرسلين يعطى للمؤمنين ، ومن تدبر آيات القرآن

وخصوصا سورة الصافات يجد تلك المواهب والكرامات فى قوله تعالى عند كل عطاء المرسلين "وكذلك نجزي المحسنين".

قوله تعالى : [وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا] (126).

لما ذكر الله مقام الإحسان فى أحسن درجة للدين ، ونسب التسليم إلى العبد إشارة إلى مقام التوحيد الكامل والملكية المطلقة لله ، حتى يخلص العبد المحسن من الشرك الخفى ، وينجيه من نسبة الأعمال إليه فقال.

[وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ] أي أن العطايا الروحية والمواهب السماوية ن إيمان وإحسان ، وتسليم وشهود وأنوار وأسرار ورحمة وحكمة هي من السماء ، لا يملكها ولا ينزلها على القلوب والأرواح إلا الله تعالى ، وأن ما فى الأرض من آيات وأنوار ، ونعم ظاهرة وباطنة هي أيضا ملكا لله تعالى يمن بها على من يشاء.

[وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا] أى ولم يزل الله معطي على الدوام لا ينقطع عطائه ولا ينتهي فضله ، وأنه كان ولم يزل محيطا بجميع المخلوقات.

وتشير هذه الآية إلى أن ملكية الله للسموات والأرض ليست واقفة عند السماء المعهودة ، التى هي محل الأفلاك والكواكب ، والشمس والقمر ، ولكنها إشارة جامعة لكل سماء مرئية ومعنوية ، كسماء الرفعة ، وسماء العظمة ، وسماء العزة ، وسماء العلم ، وكل شئ فيه معنى السمو يسمى فى اصطلاح اللغة سماء ، كذلك إشارة الملكية للأرض ليست قاصرة على أرض التراب والماء والأنهار ، ولكنها تشير إلى كل أرض مادية أو معنوية ، كأرض التواضع وأرض الذل وأرض الانكسار ، وكل ما يسمى فى عرف المعاني أرضا – فسبحان الواسع العليم المحيط بجميع الموجودات مبنوية كانت أو معنوية.

قوله تعالى : [وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا] (127).

أن من سنن القرآن الكريم أنه إذا تكلم فى علم التوحيد والتحقيق أعقبه بعلم التشريع والأحكام ، أو إذا تكلم فى علم التشريع وما يناسب الأجسام أعقبه بعلم الحقائق التوحيدية وما يتناسب مع لطائف القلوب والأرواح ، وهنا بعد أن أشار إلى التوحيد فى الآية السابقة من قوله تعالى [وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا].

أعقب ذلك بقوله تعالى "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ" وهو من علوم الأحكام التشريعية ، وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : "هو الرجل تكون عنده اليتيمة وهو وليها ووارثها ، وقد أشركته فى مالها حتى المذق ، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلًا فيشركه فمالها فيعضلها.

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى كان لجابر أبنت عم دميمة ولها مال ورثته عن أبيها ، وكان جابر لا يرغب فى نكاحها ولا ينكحها لغيره خشية أن يذهب بالزوج بمالها ، فسأل النبي ع عن ذلك فأنزل الله قوله تعالى : [وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ] أي ويطلبون منك أن تفتيهم وتحكم لهم فى الأمور التى تتعلق بالنساء.

[قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ] أى قل لهم ليس لى حكم ولا إفتاءه ، ولكن الحكم والإفتاء لله العليم الخبير ، فهو الذى يفتيكم فى جميع الأحكام سواء كانت خاصة بالنساء أو غيرهن.
"وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ" أى وما أنزل الله عليكم من الأحكام القرآنية الخاصة بالنساء ، وما يتعلق بهن من ميراث وزواج ورضاع وطلاق وغير ذلك من معاملات.

قوله تعالى : [فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ] أى وحكم الله فى اليتيمة التى مات عنها والدها وتركها تحت وصايتكم ولا ترغبون أن تنكحوهن وقد منعتن عنهن حقوقهن التى فرضها الله لهن وتمنعوهن من أن يتزوجن بغيركم طمعا منكم فى مالهن ، فالله يفتيكم أن لا تفعلوا ذلك أبدا.

قاله تعالى : [وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ] أى وكذلك أعطوا الضعفاء من الصبيان حقوقهم ولا تحرموهم من أموالهم التى تركها لهم آباءهم.

قوله تعالى : [وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ] أى وأن تقسطوا فى ولاية اليتامى فى كل شئ ، فى حفظ الأموال والمهور والزواج وغير ذلك من الضروريات والكمالات فى دائرة العدل ونور التقوى.

قوله تعالى : [وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا] فى هذه الآية تنبيه من الله تعالى للأوصياء على اليتامى أن الله تعالى عليم بكل ما يعملون فى أموال اليتامى ، فإن كان خيرا أكرمهم الله وجازاهم لأنه سبحانه خبير عليم بكل أعمالهم.

وفى هذه الآية إشارة تقول أن الأوصياء من عبادى يستفتونك يا محمد فى شأن الفتيات اليتيمات اللاتي تحت وصايتهم ، ولا يحبون أن يتزوجوهن لعدم جمالهن ، ويمنعوهن من الزواج برجال آخرين طمعا فى أموالهن التى تركها لهن الآباء فقل لهم أن اليتامى صبيان وبنات لهم حقوق مفروضة فى حدود معلومة تتلى عليهم فى كتاب الله ن فليقوموا بها حق القيام ما داموا تحت وصايتهم ، وليراقبوا الله فى حقوق اليتامى ويتصرفوا فيها بالعدل والرحمة والإحسان . وليعلموا أن كل ما يفعلوه من خير وبر فالله مطلع عليه ويجازى كل عامل بما يعمل.

وفى هذه الآية أيضا تحذير من الله لأهل العلم أن لا يفتوا فى شئ برأيهم ، لأن صريح قوله الله تعالى "قل الله يفتيكم" فيه معنى أن الإفتاء لله وحده ، وليست لمخلوق مهما علا شأنه ، فرسول الله وهو سيد البشر وصاحب العلم الغزير والقلب المتصل بالعليم الخبير ، لم يتعرض للإفتاء إلا بعد أن أفتاه الله تعالى ، ومعنى ذلك أن من أفتى برأيه – مع وجود نص قرآني – هلك فى الدنيا وخسر فى الآخرة ، نعوذ بالله تعالى من الإفتاء بغير ما فى كتاب الله وسنة رسول الله ع.

وأنى أرى أن كل من أراد الإفتاء فعليه بكتاب الله وسنة رسوله يدرسهما حق الدراسة ، حتى يعلم ظاهرها وباطنهما وحدهما ومطلعهما ، وناسخهما ومنسوخهما طوعا لأمر الله تعالى فى قوله : "وما يتلى عليكم فى الكتاب" وفى هذا النص إشارة ذوقية ، تتعلق بموضوع الفهم فى كلام الله تعالى ، وإدراك ما فى نصوص الآيات القرآنية من أحكام.

وأرى أن هذا الموضوع قد خفي على كثير من العلماء فحرموا على غيرهم أن يتكلموا فى معانى القرآن واتهموا كل باحث فى معانى الآيات بأنه أرتكب ذنبا عظيما ، وعمموا هذا الحكم على جميع الآيات القرآنية بغير استثناء ، وأرى أن هذا الحكم خطأ كبير وقع فيه بعض علماء

المسلمين ، لأنهم بهذا الحكم أغلقوا أبواب الفضل في وجوه أمة رسول الله وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، وجعلوا الأمر حكرا عليهم مع علمهم من أنه لا حرج على فضل الله تعالى .

والعلماء انقسموا في هذا الحكم قسمين : قسم حرم على المسلمين التكلم في معانى الآيات القرآنية كلها وهذا خطأ كبير ، وقسم فتح الباب على مصراعيه أمام كل متكلم في معانى الآيات جميعها والإفتاء بما يراه ، وهذا خطأ أكبر .

والصواب في رأى هو أن الله أنزل القرآن عاما على مستوى أقل المسلمين إدراكا ، وخصوصا على مستوى الباحثين الدارسين . فظاهر القرآن ومحكمة لعلماء الأحكام ، وما يتعلق بها من حدود ، وباطنة للخاصة من العلماء الربانيين ، ومتشابهة لأهل التأويل الراسخين في العلم . وإلا فمن يحرم على عامة المسلمين فهم قول الله تعالى : [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا]⁽¹⁾ ، وقوله سبحانه : [وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا]⁽²⁾ ، وقوله جل شأنه : [وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ]⁽³⁾ وغير ذلك من الآيات العامة .

وأقرر أنه لا يحرم ذلك إلا جاهل في صورة عالم ، لأن القرآن يخاطب كل طبقة من طبقات الأمة على قدرها ، كما يخاطب كل درجة من درجات الفقهاء والعلماء على قدر ما علمها ، قال تعالى : [وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ]⁽⁴⁾ ، وقال سبحانه [وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ]⁽⁵⁾ . فعلى المؤمن أن يواظب على قراءة القرآن وأن يتدبر في آياته ويأخذ منها قدر فهمه ، وما لم يفهمه عليه أن يسأل فيه من هو أعلم منه كما أمره ربه في قوله تعالى [فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ]⁽⁶⁾ .

وفي الآية إشارة أيضا إلى مقام المراقبة الذى بغيره لا يكمل إيمان مؤمن ، ولا يصل إلى مقام الإحسان محسن ، وهذه الإشارة تتجلى في قوله الله تعالى : [وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا] أى أن ما تفعلوه أيها الأولياء والأوصياء فى ولايتكم يعلمه الله ، فراقبوا العليم الذى يعلم السرائر المطلاع فى الضمائر الذى يعلم سرركم ونجواكم ويعلم مقاصدكم ونواياكم . فأخلصوا له الأعمال وكونوا صادقين فى أعمالكم ومقاصدكم فى البر بمن تحت ولايتكم من الأيتام والقصر حتى تنالوا أعلى المقامات عند بارئكم . لأن من راقب الله فى أعماله رفعه الله من مقام المراقبة إلى مقام المشاهدة وأدخله فى عبادة المشاهدين ، والأولياء والصالحين .

قوله تعالى : [وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا]⁽¹²⁸⁾ .

(1) سورة الأعراف : 31 .

(2) سورة الإسراء : 32 .

(3) سورة الإسراء : 33 .

(4) سورة المجادلة : 19 .

(5) سورة يوسف : 76 .

(6) سورة النحل : 43 .

سبب نزول هذه الآية الكريمة ما ورد فى الرويات والأحاديث عن أبى داود والحاكم عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أن سودة زوجة النبي ﷺ وسلم خافت أن يفارقها لكبر سنهما فقالت لعائشة ذلك فأنزل الله [وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ] الآية . وروى الترمذى مثله عن ابن عباس . وأخرج سعيد ابن منصور عن سعيد ابن المسيب أن أبنت محمد ابن سلمه كانت عند رافع بن خديج فكر منها أمرا ما وأراد طلاقها . فقالت لا تطلقني . وأقسم لى ما بدا لك فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج الحاكم عن عائشة قالت : أن قول الله تعالى : "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ" نزلت فى رجل كانت تحته امرأة أنجبت له أولاد فأراد أن يتزوج غيرها فطلبت منه أن يبقيا عنده ولا يقسم لها شيئا . وسبب النزول وأن كان خاصا إلا أن حكمة عاما فقوله تعالى [وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا] أى وإذا امرأة خافت من زوجها فراقا لأي سبب من الأسباب "أو اعراضا" أى أعرض عنها لعدة ما كمرض أو كبر سن أو كره "فلا جناح عليهما" أى فلا حرج ولا حرمة ولا مانع "أن يصلحا بينهما صلحا" أى يتفقا على ما يرضى الطرفين حتى تظل العلاقة الزوجية قائمة ولا يتفرقا ، فيجوز أن يتنازل أحدهما للآخر عن بعض حقوقه أو قبول شيئا لا يرضيه وذلك إبقاء على الزوجية قائمة بينهما .

قوله تعالى : "والصلح خير" أى وبقاء الزوجية مع تنازل كل منهما عن شئ من حقوقه من دوام النشوز والإعراض والطلاق .

قوله تعالى : "وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" بمعنى أن النفوس قد جبلت على البخل ، وفطرت على شدة الحرص ، وكان الشح حاضر مع النفوس البشرية لا يفارقها ، فالمرأة لا ترضى بالتنازل عن شئ مما تعودته من زوجها ، ولا تسمح بترك شئ من نصيبها عند زوجها بسهولة ، والرجل كذلك من الصعب عليه إرضائها إذا أحب عليها امرأة سواها ، أو كرها لأسباب أخرى ، ولهذا قال سبحانه [وَإِنْ تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا] .

هذه الآية وأن كانت تخاطب الطرفين معا لكى يجسن كل منهما إلى الآخر ، وأن يتقيا الله فيما يعملان ، لأن سبحانه عليم خبير بما يفعلان ، فجازى المحسن بالثواب والمسيء بالعقاب إلا أن للرجال فيها النصيب الأوفر لأنهم الجانب الأقوى فى معظم الحالات ، فحثهم على الإحسان إلى النساء وتقوى الله فيما يقدمون عليه حتى لا يظلمونهن فى المعاملات أو يجورون على حقوقهن .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يقول : أن أى زوجة خافت من زوجها طلاقا أو بغضا أو نشوزا أو أعراضا ن فلا حرج عليهما أن يتفقا على حل يرضيهما ويصلح بينهما ولو بتنازل أحدهما أو كلاهما عن حقوقه الزوجية منعا للطلاق والفرار ، لأن الصالح فى كثير من هذه الأمور خير وأبقى ، خصوصا إذا كانت الزوجة لا تصلح للرجال بسبب كبر سنهما أو مرض أصابها . أو عندها عائق يمنعها من أداء وأجبها . ولها من زوجها أولاد تخشى عليهم الضياع ، ولأن المرأة ليست مثل الرجل فى جميع الأحوال خصوصا عند تقدم السن ، فيلزم الزوجان أن يتسامحا فى الصلح بقدر استطاعة كل منهما لأن النفوس البشرية جبلت على الشح وهو شدة الحرص لدرجة البخل ، فإن لم يجاهد كل منهما نفسه فى إرضاء قرينه كان الشر والنصر والعداوة البغضاء ، وأن جاهد كل منهما نفسه وأحسن إلى الآخر بشئ من التنازل عن حقوقه برضاء وسماحة نال من الله خير الجزاء ، وبدل الله سيئاته حسنات ، لأن الله تعالى مطلع على أعمالهما ، خبير بدخائل نفوسهما ، فيجازى المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته .

وفى هذه الآية أشار تقول أن الحياة الزوجية رباط متين وميثاق غليظ فوق أى رباط آخر فى الحياة الدنيا . فأن شاب العلاقات الزوجية شئ من شوائب الضر بأحد الطرفين أدى ذلك إلى الشر والشقاق والشح والكذب والنفاق والخسران فى الدنيا والآخرة . أما إذا تم الصلح برضاء النفوس والتسامح الجميل كان رباط الزوجية عونا فى الدنيا والشفاعة فى الآخرة وإنسا أبديا سرمديا فى جوار الغفور الرحيم ، لأن الملائكة المقربين من سكان السموات وحملة العرش يتغنون بجمال هذا الرباط الرباني فى كل حين سر قول رب العالمين [الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ] (1) وقوله تعالى : [رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ] (2) .

وبهذا تكون الحياة الزوجية شأنها عظيم ومشهدا فوق كل علم وتعليم، لأن فى التزاوج شهود المنعم المعين ، وشهود الخلاق المصور ، وشهود عين يقين سر قوله تعالى : [هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ] (3) .

لذلك طلب الله من الزوجين أن يتعاونوا معا فى الحافظة على الحياة الزوجية بالتنازل عن بعض حقوقهما حتى يتم إصلاحها ودوام رابطتها فقال تعالى "أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ" .

وإذا قال الله على شئ أنه خير كان هذا الخير بلا حصر ولا قيد ولا نهاية ، يلمس خيره فى الدنيا ويعلم خيره فى الآخرة ، لأنه خير سرمدى أبدى ، فكلام الله على قدره لا على قدر عباده . وقد أشار القرآن ، إلى أن زوجات الدنيا الصالحات المؤمنات الراضيات المرضيات ، هن ملكات الآخرة اللاتي تخدمهن الملائكة لأنهن الخيرات الحسان ساكنات الجنات ، والمشار إليهن فى سورة الرحمن . فالزوجة المؤمنة إذا صلحت كانت فضلا من الله تعالى ، وفخرا لأهلها ، وأنسا وإكراما لزوجها فى الدنيا والآخرة .

نسأل الله تعالى أن يشهدنا تلك المشاهد العلية ، ويجملنا بجمال الأخلاق القرآنية . أنه رب قريب مجيب الدعاء .

قوله تعالى : [وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا] (129) .

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة كيفية معاملة الرجل للمرأة الصالحة الطائعة الراضية نفسها ، وتخاف من زوجها نشوزا أو أعراضا عنها بسبب خارج عن إرادتها ، ناسب أن يبين سبحانه فى هذه الآية كيفية معاملة الصنف الآخر من النساء فقال تعالى [وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ] لأن العدل بين النساء يقتضى المساواة التامة بينهما ، وهذا أمر مستحيل لقيام الاختلاف بين كل امرأة وأخرى بسبب حسنها أو صغر سنها أو نوع أخلاقها إلى آخر ما تتمتع به كل امرأة من صفات حميدة أو مذمومة ، فهناك الله تعالى عن الميل إلى من نحب ونهوى

(1) سورة غافر : 7 - 8 .

(2) سورة الفرقان : 74 .

(3) سورة آل عمران : 6 .

ونترك الأخرى معلقة لا هي متزوجة ولا هي مطلقة ، فقال سبحانه [فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ] لأن في ذلك ظلم للمرأة حتى لو كانت هي المتسببة في ميل الرجل عنها . فأمرنا الله تعالى بمحاولة إصلاحها وتقوى الله في معاملتها بقوله سبحانه [وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا] . بمعنى أنه إذا أتت محاولة الإصلاح والتقوى بالنتيجة المرجوة فاصفحوا بنفس راضية عما سبق منهن فاغضبكم عليهن وليسامحوكم فيما بدر منكم فحقهن ، حتى يغفر الله لكم جميعا ذنوبكم ويرحمكم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : [وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا](130).

أتى الله تعالى بآيات الصلح والإصلاح بتقوى الله قبل آية التفرقة والطلاق ، لحكمة عليه تتجلى في تهيئة نفوس الطرفين بالرضا عما يتم الاتفاق عليه سواء كان إمساكا ومعاشرة بالمعروف ، أو تسريحا برضاء وإحسان ، لأن في بعض الأحيان قد يكون في دوام المعاشرة شر كبير وضرر عظيم ، خصوصا إذا ساءت العلاقة بين الطرفين إلى حد إضرار كل منهما بالسوء لصحابه ، فناسب أن يعلمنا الله تعالى أن نبحث عن الخير والصالح أينما وجدا ، فإن وجد الخير في الصلح ودوام العشرة بنفوس راضية ونيات صافية فأقراه ، غفر الله لهما ما تقدم ورزقهم الخير كله ، وأن وجدا الأمر على عكس ذلك وتحتم التفرقة بينهما بالطلاق فتراضيا عليها بنية طلب الخير وطلب رضا الله تعالى فيما رخص لهما بقوله سبحانه [وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ] فإن الله تعالى يغني الزوج بزوجة أخرى تكون موافقة له . ويغني الزوجة بزواج آخر يكون موافقا لها [وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا] ووسعته تقتضي التباين والاختلاف في طبائع الناس وأخلاقهم بحيث يأنس كل إنسان بما يشاكله ويكمل نقصه ويرضى عن أخلاقه ومعاملاته حتى ولو كانت شاذة وسيئة في نظر قوم آخرين فكل مجانس يألف ما يجانس.

وبهذا يظهر الله تعالى لجميع خلقه غنيا غنا مطلقا وببده وحده مفاتيح الأرزاق والعطايا ، فقد يرزق الضعفاء الجهلاء بما يمنعه عن المتعلمين الأقوياء ، حتى يعلم الناس أنه هو المعطى الوهاب . وليس للبشر حول ولا قوة ولا حيلة في تصريف الأمور والأرزاق ، وإنما هو الرزاق عن وسعة لا نهائية ، وحكمة عليية قد عجزت العوالم العلوية والسفلية عن دركها أو الإحاطة بعلمها لأنها من أسرار ذاته ، وقد تتجلى به أسمائه وصفاته في جميع مخلوقاته حسب إرادته ومشيئته سبحانه.

وأكشف لك عن سر تشير إليه هذه الآية الكريمة ، وهي أن الله أوجد من كل شئ زوجين ومن كل حقيقة اثنين ، حتى تشرق شمس الأحدية والواحدية وما بينهما من وحدانية قال تعالى [وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] ⁽¹⁾ . ففي الأزواج سر الأزواج وإظهار القدرة والوسعة الإلهية والحكمة الربانية والإرادة الصمدانية التي أظهرت جميع الأشياء في حجة إلى غيرها لتكمل بها . والكمال في الخلق كمال مجازي منه الوقتي المحدود والدائم الممدود ، ومثال الوقتي يتجلى في اجتماع زوج بزوجة مختلفة في الطباع والغريزة والأخلاق والأهداف فيقع بينهما الشقاق والتنازع والعداوة والبغضاء ، وبذلك يحصل للطرفين الذل والضعف والمؤيدان إلى الاعتراف بأن لا حول ولا قوة ولا توفيق ولا هداية إلا بالله تعالى.

(1) سورة الزاريات : 49.

ومتى وصل الإنسان إلى كمال العجز من بلوغ السعادة فى الحياة الدنيا ، تداركه الحق سبحانه بالفرج والمخرج فيكون بعد اليأس الرجاء وبعد المرض الشفاء ن ويذوق طعم الراحة والنعمة والسعادة بعد العناء والشقاء ، وهكذا يعرف الإنسان الأشياء بأضدادها وهذا هو باب معرفة الإنسان بربه جل وعلا.

فالكل مضطر وأنت مجيب

سر اضطرار المصطفين عجيب

أظهرت أسرار الألوهة سيدى

ليلوح رب منعم وقريب

تجلي لكل المصطفين شئونه

والفرد أواه لها ومنيب

فترى الربوبية والعبودية فى صفا

قهر وإحسان وذاك غريب

وبها الكمال لأن نور صفاته

خفيت بطينه هيكل فتغيب

نسأل الله تعالى أن يرزقنا أدراك حكم الواسع الحكيم فى كل الشؤون المعنوية والأشياء المادية أنه هو الرزاق المتين.

قوله تعالى : [وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا] (131).

قوله تعالى : [وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا] (132).

بعد أن بين الله لنا فى الآيات السابقة طريقة التراضى بين الزوجين على الفرقة بالطلاق . ونهاهما عن شح النفس والطمع فى متاع زائل فإن ، ناسب أن يؤكد لبعاده أمرا قد يغيب عن الخواطر فى مثل هذه المواقف . كل ما فى الوجود من أرزاق وعطايا ، فبين لنا هذه الحقيقة فى آيتين متعاقبتين يعلنان أنه هو الغنى الحميد وهو الوكيل الكفيل بأرزاق عباده.

قوله تعالى : [وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ] أى أن الله هو المالك الحقيقى لكل ما فى أيديكم من أموال ومتاع وغيره مما يثير الطمع فى نفس كلا الزوجين عند الفراق ، فقوا أنفسكم الشح وأعطوا لكل طرف حقه بالمعروف فلا تظلمون ولا تظلمون.

قوله تعالى : [وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ] أى أن سنة الله فى السابقين واللاحقين إلى يوم الدين يوصيهم بالرحمة والشفقة وتقوى الله فى حقوق الناس ، وهذا أحق وأوجب بين الزوجين والأهل والأقارب لما بينهم من ود سابق ورحم قائم ، فمن يرحم يرحمه له فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : [وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا] أنى علي يقين من أنه لو قدر كل مؤمن بالله وكتبه ورسله ما فى هذه الآية من وعيد للظالمين الذين يستحلون أخذ حقوق أزواجهم ظلما وعدوانا . وأن عملهم هذا شبيه بالكفر لاقتشعرت أبدانهم

وروعت نفوسهم ، فبادروا بإعطاء كل ذى حق حقه . خصوصا بعد أن أكد الله فى آخر الآية ما أكده فى أولها تأكيد فوق تأكيد – وليس فى ذلك شئ من التكرار – بأن الله ملك السموات وما فيها وملك الأرض وما عليها وبالتالى فهو الغنى الحميد غنا مطلقا يجعله فى غير حاجة إلى ما فى السموات وما فى الأرض فيعطى منهما ما يشاء لمن يشاء ويحرم من يشاء لحكمة عليه فوق مدارك عقول الخلق أجمعين . وقد وصى عباده بتقواه فيما رزقهم به واستخلفهم فيه ووعدهم بحمد أعمالهم الحميدة ومجازاتهم عليها بالثواب الحسن الجميل فى الدنيا والآخرة.

اللهم أنا نسألك العفاف والعدل والتقوى ، ونعوذ بك من الشح والظلم وإتباع الحظ والهوى.

قوله تعالى : **[وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ]** تأكيد ثالث يخاطب الله به أهل الإحسان من عباده المتوكلين عليه حق التوكل. لأن التأكيد الأول كان خاصا بمن شرح الله صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم ، والتأكيد الثانى كان خاصا بمن باشر الإيمان قلوبهم فحبيه الله إليهم وأيدهم بروح منه . فلكل أقوام خطاب وأقوال ولكل مقام درجة ومجال ، لأن الخطاب إلى العوام غير الخطاب إلى الخواص ، وفوق هذا الخطاب إلى خواص الخواص ن فلا حرج على فضل الله تعالى سر قوله سبحانه **[انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا]** (1).

وهنا أكشف لك سرا كامنا هو ان نص التأكيدات الثلاث فى الآيتين واحد لا يتغير ، ولكن الله تعالى يوفق أهل المقامات إلى أن ينال كل منهم بقدر ما وفقه الله إلى بلوغه من درجات ، فأهل الإسلام يأخذون بأدناه ، وأهل الإيمان يأخذون بأعلاه ، أما أهل الإحسان فيأخذون بمراد الله لتوكلهم التام على الله ، ولهذا ختم الله تعالى الآية الثانية بقوله سبحانه **[وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا]**. نسأل الله تعالى أن يمنحنا حسن التوكل عليه توكلنا يفنى مرادنا فى مراده جل شأنه.

قوله تعالى : **[إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا]** (133).

بعد أن بين الله وصاياه لعباده ووضح ما يحبه منهم من معاملات ، ثم ذكرهم بالألأ ينسوا بأنه وحده المالك لكل الموجودات سواء كانت فى الأرض أو فى السموات ، ناسب أن يعرفهم بأن المالك يغير فى ملكه ما يشاء، فقال جل جلاله محذرا ومنذرا ومذكرا عباده **[إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ]** أي فاحذروا أيها الناس أن يغركم ما ملكه الله لكم من أموال وأولاد وقصور ومتاع دنيوى ، وما رزقكم به من جاه وسلطان ومناصب ومواهب الخ الخ ، فإن الله أن يشأ يذهبكم من الوجود ، أو يذهب بما أعطاكم ويجعلكم فقراء تتكفون الناس ، فيأياكم وظلم الضعفاء من عباده وعصيان أوامره ، فإن ذلك أثم وعدوان جزاؤه الغضب والمقت فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **[وَيَأْتِ بِآخَرِينَ]** أى ويأتى بقوم غيركم يعملون بوصاياه ويعاملون الخلق بما شرع لهم من الدين.

أو يملك غيركم ما كنتم تملكون ويجعلكم فى حاجة إليهم بعد أن كانوا إليكم يحتاجون.

[وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا] أى أنه سبحانه كان لوم يزل صاحب القدرة العليا والقوة العظمى ، وكل شئ فى الوجود رهن مشيئته ، فلو أراد أن يبدلكم بقوم آخرين لفعل ، وقدرته على فعل ذلك أمر واضح فى كل جيل ولا يحتاج إثباته إلى دليل ، فهو على كل شئ قدير وإليه المال والمصير.

(1) سورة الإسراء : 21.

قوله تعالى : [مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا] (134).

أى من أحب منكم الدنيا ومتاعها ، وأراد التمتع بزخرفها فعليه العمل بما أمره الله وإتباع وصاياه والانتهاز عما نهاه ، يعطيه الله ما يريد ويشاء من خيرات الدنيا وهو راض عنه ، وجزاه ثواب الآخرة وخيراتها فى جنات النعيم المقيم ، لأنه آله قادر غنى عن هذا وذاك ، فمن جاهد شح نفسه وأرضى ربه بتنفيذ أوامره . نال بفضل الله تعالى ثواب الدارين وتنعم بخيرات الكونيين.

قوله تعالى : [وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا] فيه معنى الإعلام والأخبار المقرون بالتهديد والوعيد ، أى أعملوا أيها الناس أن الله تعالى سميع بصير بما تعلنون وما تخفون ، بل وهو أعلم منكم بدخائل نفوسكم ونواياكم ، وقادر على أن يثيب المحسنين بما أحسنوا ويعذب المسيئين بما أسأوا ، فكل نفس رهينة بما كسبت وما اكتسبت ولا يظلم ربك أحداً.

وفى هذه الآية إشارة تقول أن الله تعالى أعطى الإنسان إرادة من إرادته سبحانه ، ثم نسبها إلى عبده فضلاً منه وكرماً ، ووضح أمامه سبيل الخير من سبيل الشر نعمة من لده وإحساناً ، وخيره بتلك الإرادة أى السبيلين يختار ، وتكفل سبحانه بهدايته لسبيل الشكر أو سبيل الكفر وفق حق الاختيار الذى منحه إياه ، وأخصه به عن جميع المخلوقات . فقال تعالى "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"⁽¹⁾.

نسأل الله تعالى أن يتولنا بولايته ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَخَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا] (135).

بعد أن بين الله للناس كافة أنه إذا شاء أهلكهم وأعادهم إلى العدم وأوجد غيرهم ، أو حرّمهم من نعمة التى أعطاهم ، ناسب أن يبين للخاصة من المؤمنين مراده من ظهور العدل وإشراق نور القسط وسر الشهود بالحق تقرباً لذاته العلية ، فقال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] أى يا عبادى الذين أكرمتهم بالإيمان وفضلتهم على جميع بنى الإنسان ، ووفقتهم للطاعة والعمل بما أمرتهم والانتهاز عما نهيتهم [كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ] أن أحكموا بين الناس بالعدل ولا تحكموا منحازين لحظوظ أو أهواء ، فالقسط بكسر القاف يعنى العدل ، كما يعنى الحصّة والنصيب ، فيقال تقسطنا الشئ بيننا بالسوية كل بما يستحقه ، وقوله جل شأنه : "شهداء لله" أى ناطقين بالحق شاهدين بالصدق ابتغاء مرضات الله تعالى : "ولو على أنفسكم" وحتى لو كانت الشهادة على أنفسكم والحكم على ذواتكم ، "أو الوالدين والأقربين" ولو كان المحكوم عليه أو المشهود لصالحه أحد الوالدين أو أحد الأقربين كالأخ ، والابن ، والعم أو الخال . . الخ الخ.

قوله تعالى : [إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا] وسواء كان أحد المتحاكمين غنياً ذا مال أو جاه أو منصب ، أو فقيراً لا يملك قوت يومه ، فاشهدوا فى كلا الحالتين بالحق واحكموا بالعدل ، فلا تميلوا مع هذا خوفاً ولا مع ذلك عطفاً ورحمة "فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا" لأن الله تعالى هو العليم الخبير بخلقه ، وأعلم منكم بالنفوس وما يصلحها فلا تخشوا فى الحق لومة لائم ، ولا تجعلوا للشفقة تأثير على شهادتكم "فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا" أى لا تخشوا ذو الجاه الأقوياء ، ولا تتأثروا شفقة

(1) سورة الإنسان : 3.

على الفقراء ، ولا يغركم مال الأغنياء ، ولا تستميلكم علاقة الأقرباء على الحكم والشهادة إلا بالحق والعدل مرضاة الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرِضُوا"** أى وإن تحرفوا الشهادة وتميلوا بها عن حقيقتها ، أو تمتنعوا عن أدائها إعراضاً وفراراً من قول الحق **[فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا]** أى فإن الله جل وعلا خبير بجميع أعمالكم ، مطلع على قلوبكم ، وقادر على عقابكم إذا بدلتم الشهادة أو قمتم بتحريفها أو كتمانها ، قال تعالى : **[وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ]** ⁽¹⁾ . فيجب على المؤمن أن يراقب الله فى شهادته وحكمه بين الناس ، ولا يميل عن الحق خوفاً من قوى أو عطفاً على ضعيف ، فالله تعالى يتولاه بعونه وينصره بفضله ، وهو خير الناصرين.

ومن أسرار هذه الآية رفع الحرج عن المؤمن فلا يميل عن الحق مرضاة للأقرباء ن أو خوفاً من الأقوياء . أو طمعا فى أموال الأغنياء . أو عطفاً على الفقراء ، فإذا راقب المؤمن ذلك يكون قد تغلب على فطر نفسه من الميل إلى الحظ والهوى ، وارتفع بأخلاقه إلى أعلى مستوى وصار إيمانه كاملاً . وأشرقت فيه أنوار الحق فتملئ بمعية رب العالمين ، وتجلي فى وجهه جمال الشاهدين ، الذين شهدوا بنور القلوب والأرواح عظمة العدل والصدق ، وتحققوا بوعده الله تعالى فاطمأنت نفوسهم ودخلت فى المعية راضية مرضية وكم فى طي الآيات من أسرار وإشارات نسأل الله تعالى أن يعيد للإسلام مجده الذى كان عليه أيام أصحاب رسول الله ع.

قوله تعالى : **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا]** (136).

لما نادى الله فى الآية السابقة أهل الإيمان أمرهم بالقسط شهداء بالعدل وهى أعمال ظاهرة ، ناسب أن يعيد النداء ويأمرهم بأعمال باطنه لكى يتم لهم الكمال قلباً وقالبا فيطابق ظاهرهم باطنهم.

قال تعالى : **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ]** أى يا من آمنتم وصدقتم بالله ورسله السابقين آمنوا بمحمد ع فهو رسول آخر الزمان ونبي الختام ، وآمنوا بالكتاب الذى نزل عليه فهو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب السابقة وهو القرآن الكريم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل وبين الطيب من الخبيث ، ونادي بالفضائل ونبذ الرذائل ، وآمنوا وصدقوا بالكتب التى أنزلت على الرسل السابقين لمحمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم.

قوله تعالى : **"وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ"** وهذا أمر من الله تعالى لمن آمن بالكتب السابقة أن يداوم على الإيمان بها وبالكتاب الذى نزل على محمد ، كما أنه أمر لمن آمن بمحمد وكتابه أن يؤمن أيضاً بالكتب السابقة التى أنزلت على رسله السابقين.

قوله تعالى : **"وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا"** فى هذه الآية إعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بوجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه جميعها وكافة رسله بلا تفرقة . والإيمان بحتمية اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب ، ومن يكفر بشئ من هذا أو ينكره فقد بعد بعدا كبيرا عن دائرة الإيمان ، ودخل فى دائرة الضلال وأتبع خطوات الشيطان ، وحرّم من السعادة الأبدية فى جنات الرضى التى بعث الله الرسل مبشرين بها.

(1) سورة البقرة : 283.

وتشير هذه الآية إلى أن الإيمان درجات بعضها فوق بعض ن أقلها الإيمان التقليدي الموروث عن الآباء والأجداد ، ويعلوه الإيمان القلبي الناتج عن التفكير فى الآيات وشهود تجليات الأسماء الإلهية والصفات الربانية فى جميع الكائنات ، وهذا يعلوه العلم بالأسرار وشهود الأنوار الظاهرة فى كافة الآثار حتى يتحقق المؤمن من أن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ويعلوه الإيمان بكل الرسل من الفتح إلى الختم ، إيماننا يبلغ اليقين الحق الذى لا ريب فيه ولا شك ، وهناك فوق ذلك من درجات الإيمان الخلقى بقدر ما يتحلى به المؤمن من شعب الإيمان البضع والسبعون شعبة حتى يصير وارثا لرسول الله بقدر عمله بسنة المصطفى ع فى صغير الأمر وكبيره.

وهكذا الإيمان درجات فوق درجات إلى ما لا نهاية ، لأن الإيمان طريق الوصول إلى الله ، والله لا نهاية له ، وإنما لكل مؤمن منه بقدر ما قطع من الطريق إلى الله تعالى وما أكرم به من رفيق ، فإن كان رفيقه مرشدا عارفا بمسالك الطريق قطع منه الكثير فى أقصر وقت ، ولهذا يقول العليم الحكيم سبحانه : "الرَّحْمَنُ فَاَسْأَلُ بِهِ خَيْرًا"⁽¹⁾ ويقول جل جلاله "اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ"⁽²⁾.

وفى هذا المقام أقرر لك أن الإنسان لا يكون مؤمنا سالكا طريق الإيمان إلا إذا رزقه الله تعالى بخمس أصحاب:

- 1- إمام عارف بالله تعالى يقتدى به فى أعماله.
- 2- إخوان أصفياء يتعاون معهم على البر والتقوى.
- 3- كتاب يهدى إلى الرشدين يسترشد به فى سيره.
- 4- قيامة بالدعوة إلى الله أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر بين أهله على قدره.
- 5- قلب يشع بنور الإخلاص لربه.

وقد بين القرآن هؤلاء الخمس فقال فى الأول "يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ"⁽³⁾ ، وقال فى الثانى : "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى"⁽⁴⁾ وقال فى الثالث : "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ"⁽⁵⁾ ، وقال فى الرابع : "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"⁽⁶⁾ وقال فى الخامس : "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"⁽⁷⁾ وقد سبق بيان بعض ذلك ، وسنبين البعض الآخر فى موضعه أن شاء الله تعالى وبعون منه سبحانه.

قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا"⁽¹³⁷⁾.

(1) سورة الفرقان : 59.

(2) سورة يس : 21.

(3) سورة الإسراء : 71.

(4) سورة المائدة : 2.

(5) سورة البقرة : 2 ، 3.

(6) سورة آل عمران : 110.

(7) سورة البينة : 5.

بعد أن بين الله لنا فى الآية السابقة أن كمال الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان بملائكته وكتبه ورسله جميعا ، ويزيده البحث فى العلم والجهاد فى تحصيله ، ناسب أن يبين لنا فى هذه الآية أن الإيمان قابل أيضا للنقصان والضعف بل وللزوال والضياع ، فقال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا" إلى آخر الآية.**

وجائز أن يكون المراد بهذه الآية هم بنى إسرائيل الذين آمنوا بموسى ، ثم كفروا وعبدوا العجل ، ثم عادوا إلى الإيمان ، ثم كفروا بعبسى عليه السلام ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، لم يكن الله ليغفر لهم كفرهم ولا يهديهم سبيل الإيمان ، ولكن القرآن واسع المعانى ولا يقتصر على معنى واحدا .

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا" أى صدقوا بالله تعالى واعترفوا بوجوده قائما بأسمائه وصفاته "ثُمَّ كَفَرُوا" ببعض رسله وملائكته وكتبه "ثم آمنوا" ببعض الرسل السابقين وما أنزل معهم من كتب "ثم كفروا" برسول الله وخاتم النبيين وما نزل عليه من كتاب مبين مهيم على كتب الرسل السابقين "ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا" بعد أن تبين لهم أنه الحق الذى جاء فى كتبهم عنادا من عند أنفسهم وخوفا على ریاسات كاذبة ومتاع زائل "لم يكن الله ليغفر لهم" كفرهم هذا لأنه صار كفرا بالله ورسله السابقين وما أنزل عليهم من كتب "ولا يهديهم سبيلا" لأنهم كفروا بالحق "مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ" (1) فأصبح سبيل الإيمان مغلق فى وجوههم بسابقة السوء "وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد" (2) .**

وجائز أن يكون المقصود بهذه الآية الذين آمنوا بمحمد "ثم كفروا" به ردة من أنفسهم ومكرا ببسطاء المؤمنين "ثم آمنوا" قهرا عنهم بعد الفتح وانتصار المسلمين "ثم كفروا" بعد انتقال النبي ﷺ إلى جوار ربه "ثم ازدادوا كفرا" بمحاربتهم للإسلام والمسلمين بالدسائس والإشاعات للإيقاع بضعاف المؤمنين ومنعوا لوصول نور الإسلام إلى قوم آخرين "لم يكن الله ليغفر لهم" نفاقهم السابق وكفرهم اللاحق "ولا يهديهم سبيلا" لأنهم استكبروا فى أنفسهم وكذبوا بآيات الله وصدق فيهم قوله تعالى **"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" (3) .**

وهذه الآية وأن كانت تشير إلى أهل النفاق فى عهد رسول الله ، الذين كانوا أن وجدوا ما يوافق حظوظهم وأهواءهم آمنوا ، وأن وجدوا ما لا يوافق خبث أنفسهم كفروا وأعرضوا ، إلا أنها تجر بذيلها كل من سار على دربهم ، وعمل مثلهم إلى يوم القيامة ، نعوذ بالله من أتباع الهوى الذى هو أخو العمي . .

قوله تعالى : **"بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (138).**

قوله تعالى : **"الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" (139).**

(1) سورة البينة : 4.

(2) سورة فصلت : 46.

(3) سورة الأعراف : 146.

قوله تعالى : "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا" (140).

قوله تعالى : "الَّذِينَ يَتَرَيبُصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا" (141).

قوله تعالى : "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا" (142).

قوله تعالى : "مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا" (143).

هذه ست آيات متواليات خاصة بأهل النفاق ، تبين أعمالهم وتوضح أوصافهم ، لأن الله أجمل أمرهم في الآية السابقة ، ومن سننه سبحانه أن يفصل ما أجمل ، فناسب أن يفصل لنا أحوالهم ، ويبين أخلاقهم وأوصافهم ، لكي نعرفهم فنحترس منهم ، ولا نخدع فيهم ، وننجوا من كيدهم وغدرهم.

قال تعالى : "بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ" هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ أن يخبر عن أهل النفاق "بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" أعد لهم الله في الآخرة عقابا لهم على نفاقهم ، خالدين فيه على صورة نار تؤلم أجسامهم ، وحسرة تؤلم أفكارهم وعقولهم وقلوبهم ونفوسهم ، ألما أشد وأنكى من ألم أجسامهم ، ثم شرع جل ولا يبين أوصافهم وأعمالهم حتى يعلمهم المؤمنون أولا ، ويعرفون أنفسهم ثانيا . فقال تعالى : "الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ" أى أن كل من أتخذ الكافرين إخوانا وأصحابا وترك صحبة المؤمنين فهو منافق بلا شك خصوصا إذا كانت نيته أن يعتز بهم على نوال متاع الدنيا الزائل.

قوله تعالى : "أَيَّتَبَّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ" أى يطلبون بمودتهم للكافرين القوة والنصرة والغنى والمجد والعزة والشرف ، قال لهم يا محمد "فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" أى أن كل ما يتصوره هؤلاء المنافقون من خيرات وأمجاد ، بل وما فوق ذلك مما تعجز عن تصوره ملكات الخيال عندهم من نصر وعزة وغنى ، هو ملك لله وحده يعطيه من يشاء من عباده لحكمة عليه تعجز عن دركها عقول الخلق ، وليست في حقيقتها ملكا لأحد غيره ، فالأغيار جميعا أما أن تزول عنهم نعم الله عليهم ، وأما أن يزولوا هم عنها بالموت.

قوله تعالى : "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ".

في هذه الآية أمر صريح إلى المؤمنين بأن لا يقعدوا مع الذين إذا تليت آيات الله في مجالسهم ، تحدثوا عنها بما يثير الشك فيها ، حتى إذا وجدوا من المؤمنين عدم اعتراض ، بدأوا في الاستهزاء بها تكديبا وإنكارا ، فوجب على المؤمن ترك مجالسهم حتى يخوضوا في حديث غير حديث التشكيك والتكذيب بالآيات.

ويقال أن المراد من قوله تعالى "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ" إشارة إلى آية في سورة الأنعام أمر الله فيها رسوله بقوله سبحانه "وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁽¹⁾

ولا شك أن تذكيرنا بهذه الآية التى وجهت إلى رسول الله ﷺ فى نص الآية الموجهة إلى المؤمنين فيه إشارة واضحة معناها أننا المقصودين بهذه وتلك ، لأن رسول الله قد عصمه الله من الوقوع فيما نحن معرضين للوقوع فيه . فقد ينسينا الشيطان أمر الإيمان فنركن إلى المنافقين ونقع فى حبائل كيدهم ويسرى علينا - لا قدر الله - قوله تعالى "أنكم إذا مثلهم" لأن قعودنا معهم ورضاؤنا عن أقوالهم يشركنا معهم فى الإثم والعدوان وإتباع خطوات الشيطان . نعوذ بالله الرحمن الرحيم من الشيطان الرجيم.

قوله جل شأنه "إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا" ولا ريب أن كل من فقه معانى هذه الآية الكريمة سيجعل فراره من مجالسة هؤلاء الظالمين أشد وأسرع من فراره من الأسد ، لأنه سيرى نهايته فى بطن الوحش الكاسر أرحم ألف مرة من نهايته إذا جالس هؤلاء المنافقين من الجهالة الظالمين ، نعوذ بالله من الظلم وأهله . .

قوله تعالى : "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرًا" لن من صفات أهل النفاق الخنوس انتظارا للفرص وانتهازها "فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ" أى إذا حصل لكم النصر على الكفار وفتحت لكم بلاد جديدة وأصبتكم غنائم كثيرة "قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ" نؤمن بما آمنتم به ونساعدكم على أعدائكم ، ونصركم بانضمامنا إليكم . "وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ" من النصرة والغلبة ذهبوا إليهم مستبشرين "قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" أى ألم نكنتم أخباركم عن المؤمنين ولم نبلغها لهم ، وتجسنا عليهم وبلغناكم أخبارهم وبذلك ساعدناكم عليهم حتى انتصرتهم بفضلنا . .

قوله تعالى "فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" أى فالله تعالى هو الحكم العدل العليم بالسرائر المطلع على الضمائر فيحكم بينكم بالعدل ، ويعطى كل طرف جزاءه ، فيدخل المؤمنين جنات النعيم ، ويدخل المنافقين والكافرين نار الجحيم.

"وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا" لك أن تقول هذا وعد من الله تعالى للمؤمنين بأن لا يجعل للكافرين نصر على المؤمنين أبدا ، فإن لم ينصرهم فى الدنيا نصرهم فى الآخرة ، ولك أن تقول أن نصر الله للمؤمنين على الكافرين أمر مؤكد فى الدنيا ، وأن ما نراه فى زماننا هذا من احتلال الكافرين لبلاد المسلمين راجع إلى ضعف الإيمان الذى دخل قلوبهم ، والوهن الذى أصاب أبدانهم ، فلو عاد المسلمون إلى حقيقة الإيمان وعملوا به لنصرهم الله على الكافرين نصرا مبينا ، وأذل المنافقين وأخزاهم فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ" أى أن المنافقين يخادعون المؤمنين بما فطرت عليه نفوسهم من الخبث واللؤم ن والمؤمنين يخدعون بما فطرت عليه نفوسهم من الطيبة والمحبة والرحمة ولين الجانب ، لذلك جعل الله خداع المنافقين للمؤمنين بمثابة الخداع له سبحانه وتعالى ، فتولى خداعهم بكشف الستر عنهم بإعلانه صفاتهم وبيان العلامات التى تدل المؤمنين عليهم ، فقال جل وعلا "وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً" أى إذا قام أهل الإيمان إلى الصلاة ترى علامة النفاق واضحة جليلة فى حركة المنافقين ، وهى شائبة الكسل والخمول عند القيام للصلاة لأنهم "يُرَءَوْنَ النَّاسَ" فيصلون أمام المؤمنين ليقال عنهم أنهم من المسلمين،

(1) سورة الأنعام : 68.

ويتظاهرون بالصلاة أمام الناس ليشاع عنهم أنهم من أهل الإيمان المحافظين على الصلاة فى أوقاتها مع أنهم لا يصلون أبدا إذا خلوا إلى أنفسهم.

قوله تعالى "وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا" علامة ثانية من علامات أهل النفاق أن مجالسهم لا تخلوا من اللغو واللهو والغيبة والنميمة والاستهزاء والضحك والسخرية ببعض الحاضرين أو الغائبين.

"وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ" ولا يميلون إلى مجالسة الذاكرين ، حتى إذا حتمت الظروف وقهرهم المجلس على الذكر كان ذكرهم قليل مع محاولة تحويل المجلس إلى عمل الغافلين ، فإن نجحوا استمروا جالسين وأن فشلوا فروا من الذاكرين فرار السليم من الأجرب.

قوله تعالى "مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ" صفة ثالثة من صفات المنافقين هى أن تراهم دائما أبدا مترددين بين المؤمنين والكافرين . بين الذاكرين والغافلين ، بين الحق والباطل ن لأن معنى الذبذبة هو التردد بين أمرين وعدم الثبات على مبدأ واحد فلا يركنون إلا لما فيه مصالحهم الذاتية من متع الحياة الفانية سواء كانت هذه المصالح عند المؤمنين أو عند الكافرين ، عند الذاكرين أو عند الغافلين ، عند أهل الحق أو عند أهل الباطل ، "وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا" أى ومن يشأ الله أن يضله ويحرمه من الوصول إلى كنز الإيمان ورمز هدايته فلن تجد له فى الوجود أحد يهديه إلى سبيل الإيمان.

وهنا أبين لك فى هذه الآية بيانا هو أن البشارة المطلقة تكون دائما بالخير ، فإذا قيدت كانت بالشر ، كقول الله تعالى فى بداية هذه الآيات الستة "بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" وفى ذلك سخرية بالمنافقين تفوق كل ما يسخرون به فى مجالسهم وفرارهم من ذكر الله إلا مضطرين مغصوبين ، والله بهذا يدافع عن الذين آمنوا فيسخر بالمنافقين كما يسخرون هم بالمؤمنين ليكون الجزاء من جنس العمل كما هو ظاهر فى الآية الكريمة "قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ"(1).

وبهذا تظهر لنا غيره الله على المؤمنين ظهروا لو تجلى للمنافقين ذرة منها لذابوا حسرة وطاطأوا رءوسهم خجلا وجعلوا من أنفسهم خدما للمؤمنين، نسأل الله تعالى أن يعيد إشراق أنوار سيد المرسلين . ويعز المؤمنين أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا"(144).

قوله تعالى : "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا"(145).

قوله تعالى : "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا"(146).

قوله تعالى : "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنَّ شُكْرَكُمْ وَأَمْنُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا"(147).

بعد أن بين الله تعالى الكثير من ألوان النفاق . والعديد من أشكال النفوس ، ناسب أن يحذر المؤمنين من مخالطة هذه النفوس مبينا أنواعها وموضعا مآلها ونهايتها إذا لم تبادر إلى التوبة والإصلاح.

(1) سورة هود : 38.

قال تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ" أى يا من باشر الإيمان قلوبكم ، واستنارت به أفئدتكم ، واستراحت إليه عقلوكم ، وسكنت إليه أرواحكم ، لا تجعلوا الكافرين أحببا لكم ، ولا تولوهم أموركم ، ولا تتركوا إليهم فى شؤونكم ، ولا تتخذوهم أولياء لكم من دون إخوانكم المؤمنين.

قوله تعالى : "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا" أى أتحبون وتودون أن تجعلوا لله عليكم حجة وبرهانا على أنكم من المنافقين بمولاتكم للكافرين.

قوله تعالى : "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" يوجد فى هذه الآية إعلام من الله تعالى بأن مولاة الكافرين بأى شكل من الأشكال يعد نفاق ، كما يوجد فيها أيضا أخبار بأن مال المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وفيها تحذير للمؤمنين من الوقوع فى هذه المنزلة الدنية من الجحيم مع أهل النفاق ، نعوذ بالله تعالى من النفاق وأهله.

قوله تعالى : "وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا" أى لن يوجد لهم يوم القيامة شفيع يشفع لهم ، ولا نصير ينصرهم وينجيهم من هول العذاب الأليم . ونحن نرى فى زمننا هذا بعض المسلمين يوالون الكفار ويشاركونهم فى الأموال والتجارة والأعمال ، ويؤسسون معهم الشركات ومختلف المشروعات ، ويعتمدون عليهم كل الاعتماد ، ويتوددون إليهم بأنفسهم ويختلطون معهم اختلاط أولاد ونساء ، وهذا ضرب من ضروب النفاق ونقل لأخلاق المنافقين وعاداتهم إلى الأسرة جميعها وترك أخلاق المؤمنين . .

قوله تعالى : "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ" أى أن من تاب ورجع عن مولاته للكفار ، وأصلح نفسه وأهله وعاد إلى التمسك بأوامر الله وأحكامه ، وقام بأعمال دينه مخلصا لجناح الله تعالى غير منافق ولا مرائي فالله تعالى يقبل توبته ويعيده إلى حظيرة المؤمنين.

قوله تعالى "فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" فيه فضل من الله ورحمة وقبول لعباده التائبين بعد التوبة والصدق والإخلاص مع أهل الإيمان فى صفاء الرضى والسعادة الكاملة فى دار النعيم المقيم.

قوله تعالى "وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا" ومع أننا سبق أن بينا معنى الأجر العظيم إلا أننا نقول أن الله تعالى سوف يعطى أهل الإيمان والصدق والإخلاص جزاءا حسنا وأجرا لا حد له ولا حصر يوم القيامة.

قوله تعالى "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ" أى ما حاجة الله إلى عذابكم ، وماذا يبتغيه من عقابكم بعد أن قمتم بشكره والعمل بأمره وصدقتم بما جاءكم به رسوله . وأعترفتم بفضل الله عليكم ، وتبتم من كل ما بدر منكم متحققين من حقيقة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله تعالى "وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا" أى أن الله تعالى كان ولم يزل متصفا بالشكر والعلم محبا للشاكرين من العلماء العاملين الذين يتصفون بصفاته ، فالله يحب من خلقه من كان على خلقه ، ويثيب المؤمنين الشاكرين بشكره ويمنحهم من علمه وحكمته وخيره وبره وإحسانه وكرمه أنه نعم الرب المعطى الوهاب.

ونستخلص مما سبق ذكره بعض الإشارات نلخصها فيما يأتى.

أولا: أن مقام الولاية قسمان . ولاية أهل الكفر ، وولاية أهل الإيمان ، والله تعالى قد يعطى ولاية الملك للكافرين والظالمين ليزدادوا إثما وظلما ، ولكن لا يعطى ولاية الإيمان إلا لمن أحبهم

من المؤمنين به وبرسله ودليلنا قوله تعالى "لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ" بل وفى سورة الأعراف آية تثبت أن الله تعالى قد يعطى ولاية الملكوت أيضا لأحد أفراد حزب الشيطان وهى قوله تعالى "وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ"⁽¹⁾ وهكذا نرى أن ولاية أهل الإيمان توجب على المؤمنين الاتصاف بالإحسان والقرب من الرحيم الرحمن ، وولاية أهل الكفر وحزب الشيطان تؤدى إلى الغرور والظلم النفاق والبعد ، وتوقع فى الإثم والبغى والعدوان.

ثانيا : أن الوجود يكون يوم القيامة على ما هو عليه بعد طى السماء وتبديل الأرض ووجود العلو والسفل ، فالعلو للنعيم المقيم والدرجات العلية للمؤمنين والمحسنين والموقنين إلى أعلى الدرجات ، والسفل سيكون للكافرين ، وأسفل السفل للمنافقين لأن قوله تعالى "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" يعلم منه أن النار فى السفل من الوجود الكونى حيث سيكون المنافقين فى الدرك الأسفل منها ، لأن كل سفلى له أسفل ، وكل علوى له أعلى .

ثالثا : أن يوم القيامة يكون فيه أنصار وأعوان وشفعاء وخلان وأحباب وأخوان . وهؤلاء سينصرون ويشفعون ويرفعون ويعينون كما هو مفهوم من قول الله تعالى "وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا" وبدليل استثناء الذين تابوا وأصلحوا وأخلصوا فجعلهم الله مع المؤمنين وهناك إشارة تثبت شفاعة المؤمنين فى خبر الله عن الكافرين "فمالنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين" وسنفصل معنى ذلك فى موضعه أن شاء الله رب العالمين.

رابعا : أن عذاب الكفار والمنافقين مرتبط بكفرهم وجحودهم ومرهون بأعمالهم فى الدنيا . وهو بالنسبة لهم واجب وجب بحكم نجاسة الكفر والنفاق . كما وجبت طهارة التائبين بتوبتهم وعودتهم إلى طهر الإيمان سر قوله تعالى "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ" وكأن الإيمان والشكر طهارة للنفوس من نجس الكفر والنفاق . ووقاية من أعلى النار وأسفلها ، ووجوب نوال الشكر من الله وإحسانا وإظهارا لأسماء المعطى الشكور المنعم الغفور . كما أن النفاق والكفر صورة لا يليق لها ولا لمن أتصف بها إلا العذاب والعقاب فى نظر الحق جل جلاله لأن النفاق ظلمات والكفر ظلم ، وليس للظلم والظلمات عند الله إلا نار جهنم ، لأنه لا يستوى الظلام والنور ، ولا الظل والحرور ، ولا الكفر والإسلام ، ولا النفاق والإيمان ، فالكفر والنفاق فى النار والإسلام والإيمان فى جنات ذات أشجار وأنهار وليس لله منفعة فى عذاب الكافرين والمنافقين تنزهه جل شأنه عن الاحتياج لسبب فى العذاب ، أو لعله فى الثواب فهو الغنى عن الكافرين والمنافقين بقدر غناه عن المؤمنين بل وعن العالمين أجمعين . . .

* * *

تم بحمد الله الجزء الخامس
ويليه بإذن الله تعالى الجزء السادس

(1) سورة الأعراف : 175.